شعر وصف الأدوات الصناعية في القرنين السادس والسابع الهجريين/الثاني عشر والثالث عشر الميلاديين؛ دراسة موضوعية

د. مشهور عبدالرحمن الحبازي *

تاريخ تقديم البحث: ٢٠٠٧/٧/١٠ تاريخ القبول: ٢٠٠٧/١٢/١٢

ملخّص

تناولت هذه الدراسة"" شعر وصف الأدوات الصناعية في القرنين السادس والسابع الهجريين/ الثاني عشر والثالث عشر الميلاديين" بعض ما قاله عدد من شعراء القرنين في وصف الأدوات الصناعية التي ظهرت في هذه الفترة الزمنية، وأكثر أبناء المجتمع الإسلامي من استخدامها. وقد جاءت الدراسة في ثلاثة محاور رئيسة: الأول، تناول شعر وصف أدوات الزينة الشخصية والبيئية. والثاني، تناول شعر وصف أدوات اللهو، والمجون، والتسلية. والثالث، تناول شعر وصف الأدوات المنزلية سواء أكانت من أثاث المنزل، أو أدوات الإضاءة فيه، وفي الحدائق والبساتين.

وقد اعتمدت الدراسة المنهج التاريخي في تتبع شعر الوصف في المحاور الثلاثة، وتحديد زمن حياة الشاعر، والمنهج الوصفي التحليلي في توضيح الأوصاف التي استخدمها الشعراء في وصف الأدوات الصناعية المدروسة.

وخلصت الدراسة إلى أن ما قيل من شعر في هذا الموضوع جاء في معظمه في مقطعات قصيرة، ونظم على أوزان خفيفة، فيما استخدم الشعراء تشبيهات من بيئاتهم، وتراكيب أقرب ما تكون إلى التراكيب الشائعة على ألسنة عامة الناس.

Abstract

A study of the poetry describing tools in the sixth and seventh Hijirian (twelfth and thirteenth A.D)centuries

This study tackles the poetry describing the tools used in the sixth and seventh Hijirian (twelfth and thirteenth A.D) centuries. It sheds light on a number of poets descriptions of these tools used in that period which were pervasively used in Muslim societies . The study is comprised of three parts; the first approaches the tools used for personal make-up and the tools for improving the environment. The second: approaches the ones used for entertainment, drinking, and games. The third part: is the poetry which describes the household utensils, furniture, and lightning tools in house and garden.

The study utilized the historical approach surveying information about the poets quoted and the analytical ,descriptive approach tackling the tools being studied.

The study concluded that the poetry studied are short quotations written with light rhyme. The similes are from the immediate environment and structures are common.

* دائرة اللغة العربية وآدابها، جامعة القدس.

حقوق النشر محفوظة لجامعة مؤتة، الكرك، الأردن.

مدخل

الوصف موضوع من موضوعات الشعر العربي التقليدية. وقد تطور هذا الموضوع عبر العصور، وشمل الطبيعة الصامتة والمتحركة؛ العليا والدنيا (السماوية والأرضية) ، والطبيعة الصناعية.

وقد اهتم الإنسان منذ استخلفه الله سبحانه وتعالى على هذه الأرض بتسخير ما فيها من خيرات متنوعة لمنفعته، وتحسين ظروف حياته عليها بكل السبل المتاحة لديه، ومع الزمن، وبعد امتلاكه كثيراً من سبل الحياة الكريمة في الأرض، طوّر سبلاً، وأدوات كثيرة من أجل ترفيه نفسه في الحياة الدنيا، فصنع كثيراً من الأدوات، التي أدت إلى مساعدته في تحقيق أمانيه، وفي جعل حياته على هذه الأرض سهلة، ومريحة، وممتعة.

وتفنّن في تلك الصناعة بأشكال مختلفة، فصنع أدوات لإضفاء مزيد من الجمال على الإنسان، وأخرى لتحسين أماكن سكنه، وعيشه، وثالثة للدفاع عن نفسه، وحمايتها ممّن يعتقد أنهم يشكلون خطراً عليه سواء أكانوا من بني جنسه البشر، أو من عوامل الطبيعة، وظروفها المتنوعة. كما اهتم بصناعة أدوات تيسّر له حياته في أماكن سكنه، وتمكّنه من تحصيل نصيب من المتعة، والتسلية.

هذا الاهتمام البشري أدى إلى ظهور مظاهر حضارية كثيرة في حياة الإنسان، انتقلت بشكل سلس أحياناً كثيرة من أمة إلى أمة، ومن جيل إلى جيل، وبحيث أصبحت في لحظة زمنية ما موروثاً حضارياً للبشر حيثما وجدوا، ومهما اختلفت أجناسهم، ومعتقداتهم مع تفاوت في ذلك.

الإنسان العربي المسلم وصل في القرنين السادس والسابع الهجريين/ الثاني عشر والثالث عشر الملاديين إلى مرحلة متطورة على صعيد الحياة الاجتماعية، والاقتصادية، وذلك على الرغم من الظروف السياسية الصعبة التي كان يعيشها في مختلف أنحاء العالم الإسلامي؛ شرقاً وغرباً.

هذا التطور الاجتماعي، والاقتصادي انعكس في صناعته كثيراً من الأدوات مثل: أدوات الزينة الشخصية، والجماعية، وأدوات اللهو والتسلية، وأدوات تناول الطعام والشراب، والأدوات المستخدمة في المنازل من مثل: أدوات الإضاءة كالشمعة، والسراج، والقنديل، والحصير، والسجاد. فضلاً عن الأدوات الحربية التي تفنّن في صناعتها لحماية نفسه، وتمكينه من السيطرة على غيره، وامتلاك ما يستطيع من الثروة.

في القرنين السادس والسابع الهجريين/ الثاني عشر والثالث عشر الميلاديين اهتم الشعراء بوصف هذه الأدوات الصناعية أكثر من غيرهم، بحيث لا يكاد شعر شاعر من شعراء القرنين يخلو من وصف نوع من تلك الأدوات، أو أكثر، وذلك جراء عوامل كثيرة أهمها: كثرة وجود هذه

الأدوات، وشيوعها بين الناس؛ عامتهم، وخاصتهم على حدّ سواء، مع مراعاة وجود اختلاف في قدرتهم على امتلاك الأفضل منها. والتطور الحضاري الذي جعل هذه الأدوات من مستلزمات الحياة الضرورية، وتفنّن الحكام، والأمراء، والأثرياء في بناء القصور، والمتنزّهات، والأبنية المتنوعة، وما رافقها من استخدام هذه الأدوات. فضلاً عن عزوف بعض الحكام عن الشعر والشعراء لعدم تذوقهم له، ولكونهم من غير العرب، وبالتالي انكفأ كثير من الشعراء في إظهار شاعريتهم فيما يحقّق لهم الشيوع والانتشار بين عامة الناس، وخاصتهم من العرب فتنافسوا في وصف الأدوات الصناعية التي انتشرت في المجتمع.

وقد رأيت أن أدرس في هذا البحث وصف شعراء القرنين السادس والسابع الهجريين/ الثاني عشر والثالث عشر الميلاديين هذه الأدوات الصناعية دراسة موضوعية ضمن ثلاثة محاور أساسية على النحو الآتي:

المحور الأول ــ وصف أدوات الزينة

وصف الشعراء قسمين من أدوات الزينة هما: أدوات الزينة الشخصيّة التي يتزيّن بها الإنسان في المناسبات المختلفة ليظهر بأحسن صورة ممكنة، وبخاصة النساء. وأدوات تزيين البيئة التي يعيش فيها، والتي تبعث في نفسه السرور والحبور، فضلاً عن المفاخرة بها، وقد جاء وصفهم لها على النحو الآتي:

أ ــ أدوات الزينة الشخصيّة

جاء وصف الشعراء لأدوات الزينة من خلال وصفهم المرأة، والغلمان وما يستخدمونه من أدوات أو مواد لتزيين أنفسهم وتجميلها.

وقد وصف الشعراء من أدوات الزينة، وموادها: الصابون والحرز، ولوزة المرود، البلاس (المسح) ، والكحل، والخضاب (الحناء) ، والمسواك، وغيرها مما يُتزيّن به. وممّن وصف أدوات الزينة الشخصيّة من الشعراء:

١. أبو الربيع سليمان بن عبد الله بن عبد المؤمن، المتوفى سنة ٦٠٤/١٢٠٧، قال يلغز في الصابون:[(١)]

لــه فــي صُــنْعهِ ســرٌ ملــيحٌ ... وكــلُّ النّــاسِ مُحتــاجٌ إليْــهِ

فالصابون الذي يلغز فيه يحوّل السودان إلى بيض يخشون طلوع الشمس عليهم، وكل الناس

(١) ابن سعيد الأندلسي ، علي بن موسى (ت٦٨٥هـ/١٢٨٦م) ، **الغصون اليانعة في محاسن شعراء المائة السابعة**، تحقيق إبراهيم الأبياري، ط٢، القاهرة: دار المعارف، لا.ت. (ذخائر العرب:١٤)، ص١٣٣.

يحتاج إليه لينظف بشرته وملابسه من الأوساخ؛ فتبدو بشرته نضرة، وملابسه قشيبة زاهية.

٢. عبد الرحيم بن علي البيساني، المعروف بالقاضي الفاضل، المتوفى سنة ٥٩٦/١١٩٩، قال مفسِّراً رسالة فريدة في نوعها أرسلتها جارية إلى الملك العزيز بن صلاح الدين الأيوبي:(١)

أهـدتْ لـكَ العنبـرَ فـي وَسْـطهِ زِرٌّ مـنَ التِّبـرِ دقيـقُ اللحـامِ
فـالزِّرُّ فـي العنْبـرِ معناهمـا زُرْ هكـذا مُـستَتراً فـي الظـلامِ

هنا القاضي الفاضل يوضح للملك المقصود بالرسالة شعراً، فزِرٌّ الذهب في كرة العنبر يقصد به أن يزور الملك العزيز جاريته ليلاً.

٣. عبد الملك بن عبد الله الكرابيسي المتوفى في القرن السابع الهجري/الثالث عشر الميلادي(٢)، قال يصف حرزاً من ذهب في عنق غلام مليح(٣):

إشـارة حِـرْزِ عـزِّ الـدينِ لمّـا بـدا للنـاظرينَ مـنَ النُّـضَارِ
مترجمـةٌ بـأنّي سـوفَ أرْمـي قلـوبَ العاشـقينَ بـسهم نـارِ

فهذا الغلام يلبس في عنقه حرزاً من ذهب ليردّ حسدَ الناظرين، وكل من ينظر إليه يعي أن قلبه سيصيبه سهم ناري من هذا الحرز الذهبي الذي زاده جمالاً. فلا ينظر إليه نظرة حسد.

وقال في الحرز ذاته أيضاً:(٤)

لا تحسبوا حرزَ عـزِّ الـدين حـينَ بـدا في جيـده مـن لُجـينٍ صـيغَ أوْ ذَهَـبِ
لكـنْ شـهابٌ بـأُفقِ الحُـسْنِ أرْصـدَهُ لرجمِ شـيطانِ قلـب العاشـقِ الوَصِـبِ

وهنا يجعل الشاعر الحرزَ بجماله، وأثره في نفوس الناظرين إليه شهاباً يصيبُ العاشقين بالإرهاق، فأثره مهلك كما أثر الشهب السماوية التي تُرجم بها الشياطين.

ويظهر أن أبناء هذا العصر كانوا يتهادون بعض أدوات الزينة، فهذا عبد الملك الكرابيسي

---

(١) القاضي الفاضل، عبد الرحيم بن علي (ت٥٩٦هـ/١١٩٩م)، الديوان ، تحقيق أحمد أحمد بدوي، ومراجعة إبراهيم الأبياري، ط١، القاهرة: دار المعرفة، ١٩٦١، ١/١٠٨-١٠٩، (وزارة الثقافة والإرشاد القومي، الإدارة العامة للثقافة: تراثنا) . والملك العزيز هو: عماد الدين، أبو الفتح عثمان بن صلاح الدين يوسف بن أيوب، عاش ما بين (٥٦٧هـ/١١٧١ – ٥٩٩/ ١٢٠٢م) ، تولى مصر بعد أبيه، كان عادلاً كثير الخير. ترجمته في: ابن خلكان، أحمد بن محمد (ت٦٨١هـ/١٢٨٢م)، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق إحسان عباس، بيروت: دار صادر، ١٣٩٧/١٩٧٧، ٣/٢٥١.

(٢) انظر: ابن الشعار، كمال الدين المبارك (ت ٦٥٤هـ/١٢٥٦م)، **قلائد الجمان في فرائد شعراء هذا الزمان المشهور بعقود الجمان في شعراء هذا الزمان**، تحقيق كامل الجبوري، ط١، بيروت: دار الكتب العلمية، ١٤٢٦/٢٠٠٥، م٣ج٤/١٠٦.

(٣) **المصدر السابق**، م٣ج٤/١١٠.

(٤) **المصدر السابق**، م٣ج٤/١١٠.

يصف لوزة مرود بعثها محبٌ لحبيبه، فقال[١]:

بعثـــــتُ بـــــاللّوزةِ مقرونـــــةً ... [بـــدعوة][٢] منهـــا بقـــربِ الـــتّلاقْ
وقلـــتُ: يـــا ليـــتَ لنـــا مثـــلَ مـــا ... لهـــا مـــنَ الـــضّمِّ وضـــيمِ العنـــاقْ
فـــامْنُنْ علـــى الـــصّبِّ بمـــا يرتجـــي ... واطفـــئ بمـــاء الوصـــلِ نـــارَ الفِـــراقْ

هنا هذا المحب أرسل لمحبوبته لوزة مرود لتزيّن عنقها بها، مع دعاء بأن يلتقيهـا قريبـاً، ومتمنياً بأن يكون نصيبه من محبوبته مثل نصيب هذه اللوزة، طالباً أن تجيـب محبوبتـه دعوتـه، فتطفئ بذلك نار البعد والفراق في صدره.

٤. أبو الفضل عبد المنعم بن عمر الجليانيّ الحكيم، المتوفى سنة ١٢٠٤/٦٠١، كان يتـزيّن عنـد ملاقاة محبوبته، فيلبسُ نوعاً من الثياب يسمى البلاس، أو المسح. وهو كساء من الشعر يضفي على لابسه مسحة من الجمال[٣]. فعاتبه بعض أهله على ذلك فقال[٤]:

وقائلـــــةٍ: لبـــــستَ البَلاسَـــــا ... ولـــمْ تـــرَهُ قبـــلَ هـــذا لِباســـا؟
فقلـــت لهـــا: لـــو رأيـــتِ الـــذي ... رأيـــتُ لخالفـــتِ هـــذا القياســـا
ولـــي بالرّيـــاضِ وربِّ الحمـــى ... حبيـــبٌ حمـــى مُقلَتـــيَّ النُّعاســـا
أخـــافُ إذا مـــا رأى لُبـــستي ... ســـوى جُبّـــةٍ أن يراهـــا التباســـا
ويحـــسِبُني ناســـيا عهـــدَه ... وبـــئسَ الحبيـــبُ حبيـــبٌ تناســـى

إنه يلبس هذا اللباس فقط إكراماً لمحبوبته التي يبدو أنها كانت تحبّ أن تراه بغيـر لباسـه المعتاد، فتحسبه نسي ما كان وعدها من تغيير لباسه، وهو يرى عادة التناسي بـين الأحبـة عـادة مذمومة.

٥. وكانت النساء وبخاصة القيان تزيّن عيونها بالكحل، وتخضب يديها بالحناء، فتشبه بهـنّ بعـض المخنّثين، وصاروا يكحّلون عيونهم، ما دفع الشاعر جمال الدين يحيى بن مطروح المتـوفى سـنة ١٢٥١/٦٤٩، عندما رأى مخنّثاً مكحولاً مخضب الأصابع أن يهجوه، فقال[٥]:

---

(١) ابن الشعّار، **عقود الجمان**، م٣ج١٠٨/٤.

(٢) **المصدر السابق**، م٣ج١٠٨/٤: ساقطة. ووضعت الكلمة ترجيحاً لإقامة الوزن والمعنى.

(٣) انظر: ابن منظور، محمد بن مكرم (ت ١٣١١/٧١١)، **لسان العرب**، بيروت: دار صادر، ١٩٦٨/١٣٨٨، مادة (بلس، مسح).

(٤) ابن الشعّار، **عقود الجمان**، م٣ج١٩٩/٤.

(٥) سلام، محمد زغلول، **الأدب في العصر الأيوبي**، القاهرة: دار المعارف، ١٩٨٣، ص ٣٧٤.

يأتيـــــكَ كالقينـــــة مكحولـــــةً عينـــاه مخـــضوبَ بنـــان اليـــدِ
يـــسخرُ بالـــسمرِ ومـــا فعلُـــه مـــن فعلهـــم عنـــدي بمـــستبعدِ
يـــا ذا الـــذي أعنيـــه مـــن سَـــرّه يومـــك فالويـــلُ لـــه فـــي غـــدِ

فابن مطروح يسخر من هذا المخنث المتشبّه بما تفعله القيان، محذّراً إياه مما سيلاقيه من عذاب يوم القيامة، فينقلب سروره في الدنيا إلى ويل وجحيم في الآخرة.

٦. ووصف علي بن عمر بن قزل المعروف بسيف الدين المشدّ المتوفى سنة ١٢٥٨/٦٥٦ جارية خضّبت أناملها فقال[١]:

ومليحـــــةٍ خَـــــضّبت أناملَهـــــا حمـــراً فمـــا العنّـــاب والرُّطـــبُ
فتعلّمـــــت منهـــــا ملابِـــــسَها فجميعُهـــــا أطرافُهـــــا ذهـــــبُ

فجارية ابن قزل خضبت أناملها بحناء أحمر فبدت كالعناب والرطب، ولأنها كانت تلمس ملابسها تحنّت هي الأخرى فبدت أطرافها تلمع كأنّها الذهب.

وقال في عروس نقشت الحناء على معصمها[٢]:

بـــدت عروســـاً عجنـــوا حِنّاءهـــا بمـــاءِ وردٍ لـــم يـــزل مُمَـــسّكا
للـــنّقشِ فـــي معـــصمها حـــلاوةٌ لمـــا غـــدا مـــن فوقـــه مـــشبّكا

وهنا يصف ابن قزل عروساً خضبت معصمها، لكن حنّاءها عجنت بماء الورد لكي تمنحها رائحة زكية، وقد رسمت الحناء على معصمها بأشكال جميلة فبدت كأنها شبك جميل على معصمها.

٧. وقال زهير بن محمد المهلبي، المعروف ببهاء الدين زهير المتوفى سنة ١٢٥٨/٥٦٥، يصف امرأة معتدلة القامة وقرطها الغيور[٣]:

قـــوامٌ بـــينَ ذلـــك باعتـــدالِ فـــلا طـــولٌ يعـــابُ ولا اختـــصارُ
وشـــعرٌ واصـــلَ الخلخـــال منهـــا فأضـــحى قُرطهـــا قلقـــاً يغـــارُ
حكـــت فـــصل الربيـــع بحـــسن قـــدٍّ تـــساوى الليـــلُ فيـــه والنهـــارُ

هنا يجعل البهاء زهير قرط المرأة الذي تلبسه للزينة يغار من شعرها الذي يصل خلخالها فهو ينافسه في تزيين المرأة.

---

(١) ابن قزل، علي بن عمر (ت٦٥٦هـ/١٢٥٨م) ، الديوان، تحقيق ودراسة مشهور الحبازي، القدس: مركز التعاون والسلام الدولي، ١٤٢٣/٢٠٠٢، ص١٤٥، (سلسلة القدس مركز إشعاع حضاري:١)

(٢) المصدر السابق، ص١٤٢.

(٣) البهاء زهير، زهير بن محمد (ت٦٥٦هـ/١٢٥٨م) ، الديوان، بيروت : دار صادر ودار بيروت، ١٣٨٣/١٩٦٤، ص١٤٨.

٨. وكان الناس يستخدمون المسواك للمحافظة على أسنانهم نظيفة لامعة، ولاعطاء أفواههم رائحة طيبة، وقد وصف شهاب الدين أحمد بن محمد المعروف بابن الدمرداش المتوفى سنة ١٣٢٣/٧٢٣ محبوبه الذي كان يستخدم المسواك، فقال[١]:

أقولُ لمسواكِ الحبيبِ لكَ الهنا ... بلثمِ فمٍ ما نالَهُ ثغرُ عاشقِ
فقالَ وفي أحشائه حُرقُ الجَوى ... مقالةَ صبٍّ للديارِ مفارقِ
تذكّرتُ أوطاني فقلبي كما ترَى ... أُعلِّلُهُ بينَ العذيب وبارقِ

ابن الدمرداش هنا يغبط المسواك على لثمه فم معشوقته، وجعله ينطق بأنه كالعاشق الذي يوشك على مغادرة ديار محبوبه إلى وطنه، فهو يودعه بين الريق والثغر. وقد استخدم التورية استخداماً رائعاً للتعبير عن ريق المحبوب وثغره، فالعذيب وبارق مكانان في جزيرة العرب ينبت فيهما شجر الأراك الذي يُتخذُ منه السواك. فوصف الريق بالعذيب، والثغر ببارق.

٩. ووصف محيي الدين عبد الله بن عبد الظاهر المتوفى سنة ١٢٩٢/٦٩٢ الزمرّد الأخضر الذي زيّن به غمد سيفه، فقال[٢]:

ذبابُ السّيفِ من لحظٍ إليهِ ... لأخضر صدغه بعدَ انتسابِ
فلا عجبٌ إذا ما قيلَ هذا ... لهُ صدغٌ زمرّدهُ ذُبابي

فابن عبد الظاهر يَصف غمد سيفه المزيّن بالزمرّد الأخضر، الذي يخفي طرفه أو حدّه الذي يضرب به بأنه كالصدغ للفتى يحمي طرفيه، أي خدّيه.

ب ــ أدوات الزينة البيئيّة

اهتم الشعراء في القرنين السادس والسابع الهجريين/ الثاني عشر والثالث عشر الميلاديين بوصف مجالس الأنس واللهو التي كانت تقام في المتنزهات الخاصة والعامة، أو في القصور، وبساتينها ورياضها، فهذا الشاعر هبة الله ابن القاضي الرشيد جعفر المعروف بابن سناء الملك، المتوفى سنة ١٢١٤/٦٠٨، ينظم قصيدة يصف فيها مجلسه، وكتبها على منظرة له، يقول:[٣]

(١) ابن العماد الحنبلي، أبو الفلاح عبد الحي (ت١٠٨٩هـ/١٦٧٨م)، شذرات الذهب في أخبار من ذهب، [طبعة ثانية منقحة] ، بيروت: دار المسيرة، ١٩٧٩/١٣٩٩، ٥٩/٦.

(٢) الغزولي، علي بن عبد الله (ت٨١٥هـ/١٤١٢م) ، مطالع البدور في منازل السرور، القاهرة، مكتبة الثقافة الدينية، ٢٠٠٠/١٤١٩، ٤٦٦/٢.

(٣) ابن سناء الملك، هبة الله بن جعفر (ت٦٠٨هـ/١٢١٤م)، الديوان، تحقيق محمد إبراهيم نصر ، ومراجعة حسين نصار، القاهرة: دار الكتاب العربي، ١٩٦٩/١٣٨٨، (الجمهورية العربية المتحدة: وزارة الثقافة)، ٨٧٢/٢، ٥٧١.

نعـــمْ هـــذه دارُ النَّعـــيم المعجَّـــلِ تُـــذكرُني دارَ النَّعـــيمِ المؤجَّـــلِ
فـــأرتعُ فـــي الـــدَّارينِ فـــي زمَـــنٍ معـــاً بعينـــي وعينَـــيْ فكرتـــي وتخيُّلـــي

هنا يصف مجلسه بأنه دار الجنة الدنيا التي تذكره بدار الجنة الأخرى، وهو يتمتع بـالأولى بعينيه المبصرتين، وبالأخرى فكراً وتخيلاً. ويدعو أصدقاءه لمجالسته ومشاركته المتعة فـي هـذا المجلس، ولا يفكر بما كان في الجاهلية. ثم ينتقل ليصف حقيقة المجلس فيقول:

لقد قصّرت عـن شـأوِها كـلُّ روضـةٍ وقـصَّرَ عـن أملاكهـا كـلُّ أفـضلِ
وأنسى بها بين الورى ذكـر جَعفـرِ الـرَّ شـيدِ فـأنّى جعفـرُ المتوكِّـلِ
يُرى الضيف فيها وهـو ضـيف لحـاتمٍ كما الجارُ فيهـا وهـو جـارُ الـسموأَلِ

هنا يصف روضة المجلس ويفاخر بها، فلا تضاهيها روضة في الدنيا، ولا يحوزها صاحب فضل، ومن يرها ينسَ ما كتب عن مجلس جعفر البرمكي ذائع الصيت، فكيف بمجلس أبيه القاضـي الرشيد جعفر الذي لم يبلغ صيته صيت البرمكي، ويلقى من يجلس فيها كرم حاتم الطائي، وتحفـظ ذمته كما لو كان في ذمة السموأل بن عادياء اليهودي ــ ويتابع ليصف طبيعة المجلس فيقول:

سـماءُ نُـضارٍ تحتهـا أرضُ فـضّةٍ يفـرّعُ مـاءُ الـوردِ فيهـا بجـدْولِ
وفي الصدرِ شـاذَرْوانها[1] جفـنُ ملعـبٍ لعفريّـةٍ آثـارُ طيـفٍ وأيطـلِ[2]
وكم طـائرٍ مـن رأسـهِ المـاء طـائرٌ علـى أنّـهُ فـي وكـرِهِ كالمُكبّـلِ
وكـم أسـدٍ والمـاء مـن فيـه واثـبٌ وإنْ كانَ لـم يـنهضْ ولـم يتَحلْحَـلِ[3]

هنا يجعل سماء المجلس خضراء نضرة كناية عن الشجر الكثيف، وأرضه من فضة جـرّاء النهـر الجاري فيها، وترفده جداول كأنما رائحتها ماء الورد.

---

(١) الشاذَرْوان: مجار مرتفعة في حائط من الرخام تسيل عليه منحدرة إلى بركة الماء، وتسمى سلسبيلا.أو فوّارة ماء. أو هي آلة لفصل مياه الأنهار عند تحويلها،وهو عبارة عن ألواح خشبية متينة يوضع خلفها أعمدة لتثبيتها؛ فيرتفع مستوى المياه في النهر لتسقي الأماكن المرتفعة.انظر:المحبي، محمد الأمين بن فضل الله (ت١١١١هـ/١٦٩٩م)، **قصد السبيل فيما في اللغة العربية من الدخيل**، تحقيق عثمان الصيني، ط١،الرياض:مكتبة التوبة، ١٩٩٤، ١٧٩/٢؛ ابن سناء الملك، **الديوان**، حاشية المحقق رقم٩، ص٥٧١؛ دهمان، محمد أحمد، **معجم الألفاظ التاريخية في العصر المملوكي**، ط١، بيروت، دمشق: دار الفكر المعاصر،دار الفكر،١٤١٠/١٩٩٠، ص٩٥.

(٢) العفرية: ريش عنق الديك، وشعر القفا للرجل، وشعر الناصية للدابة. انظر: الفيروز أبـادي، محمـد بـن يعقـوب (ت ٨١٧هـ/١٤١٤م)، **القاموس المحيط**، دار الجيل، بيروت، د.ت.، ٩٥/٢. الأيطل: الخاصرة. ابن منظور، **لسان العرب**، مادة أطل.

(٣) يتحلْحل: يتحرّك ويذهب، يتزحزح. ابن منظور: **لسان العرب** (حلل)، مادة حلل.

وفي صدر المجلس شاذروان، أو فوّارة ماء، وتحيط به ظباء جميلة، وطيور تتبع من رؤوسها الماء، وأسد تنفث الماء على دفقات.

ثم يعود ليصف المجلس، ويفاخر به فيقول:

أُعيدَ ملوكُ الأرضِ فيها ليعلموا ... بأنّ الذي شادوهُ غيرُ مكمَّلِ
يقابلُ كسرى قيصراً وكلاهُما ... يُقلِّبُ طرفَ الباهتِ المتأمِّلِ
فكسرى يرى الإيوان كِسْراً وقيصرٌ ... يرى القصرَ خُصَّ الناسك المتبتّلِ
وصُوِّرَ في أرجائها كلُّ عاشقٍ ... يرى العشقَ فرضاً في الكتابِ المنزّلِ
جميلُ بثينٍ مع كثيِّرِ عزّةٍ ... يصوغانِ أشعارَ الهوى والتغزّلِ
وقد عُرِضتْ فيها الجنودُ فجحفَلٌ ... يمرُّ على آثاره ألفُ جَحفلِ
كأنّهم في يوم عيدٍ فقُمْصُهم ... من الوشيِ لا قمص الحديدِ المسربّلِ

يفاخر الشاعر بأنه لو قدّر، وأعيد ملوك الأرض السابقين أحياء، ورأوا هذا المجلس؛ فإنهم سيدركون قصور ما شادوه، بحيث يبدو كسرى وقيصر مندهشين مما يتأمّلانه في هذا المجلس، حيث صور أشهر شعراء العشق مع من يعشقون يتبادلون أحاديث الغزل والحب. وجحافل الجنود تؤدي عروضاً عسكرية، وهم يلبسون ثيابهم العسكرية الموشاة القشيبة. ثم يعود ليصف الرياض في المجلس، فيقول:

وقد أينعت فيها الرياضُ فكم بها ... لمختَرِفٍ من كلِّ عذقٍ مذلّلِ
وقد بعُدَتْ لكنْ على كفِّ مجتنٍ ... وقد قَرُبَتْ لكنْ إلى عينِ مجتلي
فقد بانَ منها للورى فضلُ آخرٍ ... كما بانَ منها عندهم نقصُ أولِ

إن رياضها حتى في وقت الخريف يانعة، ونخيلها سهل اجتناء الثمر، لكنهم لا يقطفون الثمر بل يكتفون بالنظر إليه، فيتضح لهم كم تفضل الأواخر، وكم قصّر الأوائل من البشر.

وأقيمت بعض مجالس الأنس على حواف الأنهار حيث انتشرت الفوّارات، والدواليب، والنواعير. وكثيراً ما كانت تقام على نهر العاصي قرب حماة في بلاد الشام، وعلى نهر النيل في أرض الكنانة، وقد وصف غير قليل من الشعراء الفوّارات، والدواليب، والنواعير. وتمكنت من جمع عدّة مقطّعات قيلت في وصفها، وتحدّثت عنها وفق الآتي:

أ. وصف الفوّارة

استخدمت في برك ماء صغيرة كانت تنتشر في ساحات بعض القصور، أو المتنزّهات، أو حدائق منازل بعض خاصة الناس من ذوي السلطة والثراء، وكثيراً ما كانت تعمل في الصيف لإضفاء

جمال على الحدائق، ومجالس الأنس، وتلطيف أجواء تلك المجالس. وممّن قال في وصفها:

١ـ ابن قلاقس، نصر الله بن عبد الله المتوفى سنة ١١٧١/٥٦٧، قال في وصف فوّارة[١]:

منـــــارةٌ للرّخـــــام قائمـــــةٌ عنهـــا شـــرارُ الميـــاه مُنْفَـــضّهْ
كأنّهـــــا فـــــازةٌ[٢] مُكلّلَـــــةٌ عَمُودُهـــا مـــنْ سَـــبائكِ الفِـــضّهْ

فالفوّارة التي يصفها ابن قلاقس مبنية من رخام، تتناثر منها المياه كأنّها الشرار المتطاير من النار، وهي تشبه المظلّة القائمة على عمود من الفضة، والمكلّلة بالماء الذي يفور منها.

٢ـ كمال الدين، علي بن محمد المعروف بابن النبيه المصري، المتوفى سنة ١٢٢٢/٦١٩، قال:[٣]

واقفـــــة بـــــلا تعَـــــبْ تـــشكو مـــنَ الـــصّبِّ لَهـــبْ
كأنّهـــــا فـــــي حُـــــسنها وقـــــدْ أتـــــينَ بالعجَـــــبْ
فـــــوّارةٌ مـــــن فـــــضّةٍ تمـــــجُّ مـــــاءً مـــــنْ ذهـــــبْ

هنا فوارة ابن النبيه تظهر بمظهر آخر، إنها دائمة الوقوف من غير تعب، ولشدّة عشقها تظهر شكواها على صورة لهب، وهي في جمالها تأتي بالأشياء العجيبة، فمع أنها مصنوعة من الفضة إلا أنها تقذف ماء الذهب. وذلك لانعكاس أشعة الشمس عليه.

٣ـ محمد بن علي بن يعقوب، المعروف بمجير الدين ابن تميم المتوفى سنة ١٢٨٥/٦٨٤، أكثر من وصف الفوارات، فمن وصفه لها، قوله:[٤]

لقـــد نزّهَـــتْ عينـــيَّ أنابيـــبُ بركـــةٍ تُقـــابلني أمواهُهـــا بالعجائـــبِ
أنابيـــبُ لجَّـــتْ فـــي علـــوٍّ كأنّمـــا تحـــاولُ شـــأواً عنـــدَ بعـــضِ الكواكـــبِ

هنا يصف ابن تميم فوارة من شكل مختلف، إنها مجموعة أنابيب تطلع في بركة ماء تنفث مياهاً بأشكال عجيبة، ومياه هذه الأنابيب (الفوارة) تتسابق في الارتفاع، وكأنها تحاول الوصول إلى

(١) ابن ظافر الأزدي، علي بن ظافر (ت٦١٣هـ/١٢١٦م)، غرائب التنبيهات على عجائب التشبيهات، تحقيق محمد زغلول سلام وزميله، القاهرة: دار المعارف، لا.ت. ، ص٧٣.

(٢) الفازة: بناء من خرق وغيرها تبنى في العساكر، والخِرَق: رماد اللازق بالأرض أو المنديل أو نحوه يلَفّ ليفزّع به. وهو مظلة قائمة على عمود. ابن منظور، لسان العرب، مادة (فوز).

(٣) ابن النبيه، علي بن محمد (ت٦١٩هـ/١٢٢٢م) ، الديوان، تحقيق عمر الأسعد، ط١، بيروت: دار الفكر، ١٩٦٩، ص٤٩٢.

(٤) ابن تميم، محمد بن علي (ت٦٨٤هـ/١٢٨٥م) ، الديوان، حققه هلال ناجي وزميله، ط١، بيروت: عالم الكتب، ١٤٢٠/١٩٩٩، ص٢٢.

كواكب السماء لتأخذ ثأرها منها. إنّ منظر هذه الفوارة متعدّدة الفوهات ينزّه ويمتّع ليس فقط عينيّ ابن تميم بل كل عيون تنظر إليها.

وقال في فوارة ثانية:(١)

وفوّارةٍ لما رأتْ منّةَ السّما ... على الأرضِ في إهدائها نحوها القَطْرا
سَمَتْ فأعادت في السماءِ مياهها ... وزادتْ فأجْرَتْ في مجرّتِها نَهْرا

هنا يصف فوّارة تعمل وقت الشتاء، ولا شك في أنّ ذلك يمكن أن يشير إلى أنّ بعض الحكام والأثرياء، الذين كانوا يستخدمون الفوّارات استخدموها حتى وقت الشتاء. إنّ هذه الفوارة لما رأت السماء تتفضّل على الأرض بالغيث، رفعت مياهها نحو السماء لتردّ لها جميلها، بل وزادت على ما فعلته السماء، فبدا ماؤها في صفحة السماء كأنّه نهر جار.

وقال في فوّارة ثالثة:(٢)

وفوّارةٍ جادت على الزهر فانثنت ... عَقِيبَ الظّما بالرّيِّ كالنّرجسِ الغضِّ
وقد أرسلت لمّا ارتوت فضل ما بها ... هدايا على أيدي السّحابِ إلى الأرضِ

هنا تجود فوارة ابن تميم على الأزهار الظمأى بالريّ، فتبدو كالنرجس اللين الطّري، وأرسلت الماء الزائد عن حاجتها إلى الأرض يجري، فيسقيها مع ماء السحاب.

ب. وصف الدولاب

وصفه عدد من الشعراء، وذكروا الهدف من صناعته، وهو حمل الماء ليفيد الإنسان منه في أغراض شتّى، وممن وصفه من الشعراء:

١ـ يوسف بن لؤلؤ الذهبي، المتوفى سنة ٦٨٠/١٢٨١، قال:(٣)

وروضةٍ دولابها ... إلى الغصون قد شكا
من حين ضاع نشرُها ... دار عليها وبكا

. هنا ابن لؤلؤ يشخّص الدولاب، فالدولاب موجود في روضة غنّاء، وهو يشمّ رائحة أزهارها الطيبة الذكية، فلما لم يعد يشمّها اشتكى لأغصان الروضة، وتحرّك ليسقيها، فتعود رائحتها تنتشر في أرجائها مرّة ثانية.

---

(١) ابن تميم، الديوان، ص٣٧.

(٢) المصدر السابق، ص٥١.

(٣) محفوظ، حسين علي، شعر بدر الدين أبي المحاسن يوسف بن لؤلؤ بن عبد الله الذهبي الدمشقي (ت٦٨٠هـ/١٢٨١م)، مجلة كلية الآداب، جامعة بغداد، عدد ١١، ١٩٦٨، ص٦٥.

٢ــ وأكثر ابن تميم من وصف الدواليب، ومما قاله فيها:(١)

تأمّل إلــى الــدولابِ والنّهــرِ إذ جَــرى ودمعُهمـــا بـــينَ الريـــاضِ غزيـــرُ
كأنّ نسيمَ الــروضِ قــد ضــاعَ منهمــا فأصـــبحَ ذا يجـــري وذاكَ يـــدورُ

هنا يبدي ابن تميم إعجابه بالصورة الماثلة أمامه، صورة الدولاب القائم على النهر الجاري كليهما بغزارة بين الرياض والبساتين، وهما يجريان بحثاً عن نسيم أزهــار الريــاض، ورائحتهــا الذكية.

وقال في دولاب ثان:(٢)

ودولابِ رَوْضٍ كان مــن قبــلُ أغْــصُناً تمـــيسُ فلمـــا غيَّرَتهـــا يـــدُ الـــدّهرِ
تـــذكَّرَ عهـــداً بالرِّيـــاضِ فكلُّـــهُ عيونٌ على أيام عــصرِ الــصِّبا تجــري

يذكر ابن تميم هنا البداية الأولى للدولاب، فهو كان أغصاناً نضرة طريّة ملساء، لكنَّ الــدهر غيّر حالها، فأصبحت دولاباً. وهو (أي الدولاب) لمّا تذكّر ماضيه أخذ يبكي على أيام صباه وشبابه. وذلك كناية عن الماء الذي يصبّه.

وقال في دولاب ثالث:(٣)

أيا حُسْنَها مــن روضــةٍ ضــاعَ نــشْرُها فنــادتْ عليــه فــي الرِّيــاضِ طيــورُ
ودولابُهـــا كـــادتْ تُعَـــدُّ ضـــلوعُهُ لكثـــرةِ مـــا يبكـــي بهـــا ويـــدورُ

هنا الدولاب قائم في روضة فاح ريحها الطيب الذكي، وغنّت طيورها، ونحلَ جسمُهُ حتــى بدت أضلاعه ظاهرة للعيان، وذلك لكثرة دورانه، وحمله الماء ليسقي روضته.

وقال في دولاب رابع يصفه والنهر القائم عليه:(٤)

تكسَّرَ النهــرُ لمّــا أن جــرى فغــدا الــدْ دُولابُ يندبـــهُ شـــجواً ويبكيـــهِ
وأصـــبحَ الغـــصنُ بـــالأوراقِ ملتطمـــاً والورقُ فــوقَ كراســي الــدَّوحِ ترثيــهِ

هنا يصف ابن تميم النهر والدولاب، فالنهر جرى، فتعثّر في جريانه، وأخذ الدولاب يندبــه ويبكيه، فيما الأغصان أخذت تلطم بعضها بعضاً كالثكلى، والحمام أخذ يرثيه. وهو هنا رســم لنــا صورة حيّة للنهر، وما عليه من دولاب، وأغصان، وحمام.

---

(١) ابن تميم، الديوان، ص٣١ .
(٢) المصدر السابق، ص٤٣ -٤٤.
(٣) المصدر السابق، ص٣٦.
(٤) المصدر السابق، ص٩٢.

ج ــ وصف الناعورة

أقيمت كثير من النواعير في مدينة حماة على نهر العاصي، وذلك لنزع مياه النهر، واستخدامها لإفادة الناس سواء في الشُّرب، أو في سَقْي المزروعات والحيوانات، وقد أقام كثيرون حول هذه النواعير حدائق وبساتين اتخذوها مجالس لهو، وسمر، وترويح عن النفس في أوقات الفراغ.

وقد أعجب كثير من الشعراء بالنواعير وما تقوم به من أعمال في نزع المياه من الأنهار، ونقلها إلى الأراضي المرتفعة لسقايتها، فوصفوها بأوصاف كثيرة، وممن وصفها:

١. قال ابن قزل، يصف بستاناً فيه ناعورة:(١)

وجنّةٍ يُضْحِكُها ناعورةٌ تَنْتَحِبُ
ثمارُها في عُرُسٍ تلْهُو بهِ وتلْعَبُ
أَمَا تراها قَدْ بَدَتْ فوقَ الغُصونِ تعجَبُ
تُفّاحُها مُخَضَّبٌ وتينُها مُكَبَّبُ

هنا البستان جنة تضحك من الناعورة القائمة فيها، وهي تبكي فتسقيها، وثمار هذه الجنة كأنّها في عرس جراء الماء الذي يتساقط عليها من الناعورة، وهي فوق أغصانها تتعجب من الواقع، وتفاح الجنة مخضّب، وتينها على شكل الكبة. فهنا يصف ابن قزل آثار الناعورة على البستان.

وقال يدعو صديقاً له للشّرب في بستان فيه ناعورة:(٢)

قُمْ نشرب اليومَ في البساتين فإنّما الراح في الرّياحين
بينَ شقيقٍ وسوسنٍ عبقٍ وبينَ وردٍ وبينَ نسْرين
وصوت ناعورةٍ لها نغمٌ كأنّها نغمَةُ الدّساتين(٣)
مدامةً كالهواءِ صافيةً والماءُ والنارُ وهي من طينِ

إنه يدعو صديقه ليشاركه الشُّرب في البساتين، حيث شقائق النعمان، والسوسن، والورد، والنسرين، وكلّها ذات رائحة طيبة باقية في البساتين. وحيث صوت الناعورة يشبه صوت العود،

(١) ابن قزل، الديوان، ص١٥٤.

(٢) المصدر السابق، ص٢٧٩.

(٣) الدساتين: جمع دستن، وهو الوتر من العود أو ما يقابله من سائر الآلات. انظر: مسعود، جبران، الرائد، معجم لغوي عصري، ط٣، بيروت: دار العلم، ١٩٧٨، ٦٦٩/١.

والخمر صافية، ويعجب من كونها مصنوعة من الطين، ولا تتأثر بما حولها من ماء ونار.

٢. وقد أكثر ابن تميم من وصف النواعير، فمما قاله فيها:(١)

نـــاعورةٍ مُـــذْ غـــابَ عنهـــا قلبُهـــا دارت عليـــــهِ بأنَّـــــةٍ وبكـــــاءِ
وتعلَّلَـــــتْ بلقائـــــهِ فلأجْـــــلِ ذا جعلـــتْ تـــديرُ عيونَهـــا فـــي المـــاءِ

هنا جعل ابن تميم الناعورة مثل امرأة غاب عنها ابنها فأخذت تبكيه وتئن عليه، وهي تعلِّل نفسها بلقائه لذلك فإنّها تغسل عيونها بالماء.

وقال في ناعورة ثانية:(٢)

ونـــــاعورةٍ شـــــبهتُها إذْ رأيتُهـــــا ومـــا زالَ فكـــري بالغرائـــبِ يـــسمحُ
بطـــائرةٍ محـــضرّةٍ كـــلُّ ريـــشةٍ لهـــا تحتهـــا عـــينٌ مـــن الـــدّمْعِ تـــسفح

هنا يشبه الناعورة بطير بلّل ريشه بالماء، ولكثرة ما تحمله من ماء الأنهار فكأنّ لها تحت كل ريشة عيناً تسفح الدمع.

وقال في ناعورة ثالثة:(٣)

ونـــاعورةٍ شـــبّهتُها حـــينَ ألبـــستْ منَ الشمسِ ثوباً فـوقَ أثوابهـا الخُـضْرِ
بطـــاووسِ بـــستانٍ يـــدور وينجلـــي ويـــنفضُ علـــى أرياشـــهِ بلَـــلَ القطْـــرِ

هنا يشبه الناعورة وهي في بستان أخضر وقد طلعت عليهـا أشـعة الـشمس بالطـاووس يتبختر، وقد أخذ ينفض عن ريشه ماء المطر.

وقال في ناعورة رابعة وقد شخّصها:(٤)

نـــاعورةٍ قالـــت لنـــا بأنينهـــا قـــولاً ولـــم تـــدْرِ المقـــالَ ولـــم تَـــعِ
كم فـــيَّ مـــن عيـــبٍ يُـــرى مـــع أنّنـــي أبـــداً أســـيرُ ولا أفـــارقُ موضـــعي
لا رأسَ فـــي جـــسدي وقلبـــي ظـــاهرٌ للنـــاظرينَ وأعينـــي فـــي أضـــلعي

إنه يُنْطِقُ الناعورة، لا بل يفسِّر أنينَها مع أنّها لا تستطيع الكلام ولا تعيه، فهي كما فهم منها ابن تميم: كثيرة العيوب، دائمة السير مع أنها لا تفارق مكانها، ولا رأس لها، وقلبها يراه من ينظـر إليها، وعيونها في أضلاعها.

---

(١) ابن تميم، الديوان، ص١٤.

(٢) المصدر السابق، ص٢٦.

(٣) المصدر السابق، ص٤٢.

(٤) المصدر السابق، ص٥٧.

وقال يصف ناعورة خامسة، وقد أنطقها عن حالها:(١)

ونـاعورةٍ قالـت وقـد غـابَ قلبهـا ... وأضـلُعها كـادتْ تعـدُّ مـنَ السُّقْمِ
أدور علـى قلبـي لأنّـي فقدتُـه ... وأما دموعي فهي تجري علـى جسمي

هنا الناعورة ضاع قلبها، وبرزت أضلاعها من شدّة المرض، وهي تدور بحثاً عن قلبها الذي فقدته، ودموعها تجري على جسمها.

المحور الثاني ــ أدوات اللهو، والمجون، والتسلية

وصف شعراء القرنين السادس والسابع الهجريين/ الثاني عشر والثالث عشر الميلاديين كثيراً من أدوات اللهو، والغناء، والمجون، والتسلية التي استخدمها أبناء المجتمع العربي الإسلامي في حياتهم في تلك الفترة الزمنية، وأهم الأدوات التي وصفها الشعراء وتمكنت من العثور على شعر فيها، هي:

١ــ أدوات اللهو والمجون

وصف الشعراء عدداً من الأدوات التي أكثر المغنون والمغنيات من استخدامها في مجالس الغناء، ومنها: العود، والشبابة، والمزمار، والربابة، والدّف، والجنك، والأرغن وغيرها، وقد تحدّثت عنها على النحو الآتي:

١. العـود

عثرت على عدّة مقطعات في وصفه، قالها عدد من الشعراء، منهم:

أ. قال ابن قزل يصف عوّادة، وهي تنقر عودها:(٢)

وعـوّادةٍ نقـرت عودَهـا ... فَحـنَّ الفـؤادُ إلـى ذلكـا
كمرضـعةٍ لاعبـتْ طِفلَهـا ... إذا دغدغتْـهُ ابتـدا ضـاحكا

فهذه العوّادة التي يصف ابن قزل ضربها على العود جعلت الشاعر عندما سمع نقرها على العود يحنُّ إلى سماعه، تماماً كما المرضعة إذا ما لاعبت طفلها فإنه يأخذ في الضحك.

وقال ابن قزل أيضاً ملغزاً في العود، وقد احتضنته العوّادة:(٣)

وحاضـنةٍ صـنماً ناطقـاً ... وتكـرمُ مثـواهُ مثـلَ الولـدْ
تُدغـدغُ أحـشاءَهُ صـالحاً ... وتعـرُكُ آذانَـهُ إنْ فَسَـدْ

---

(١) ابن تميم، الديوان ، ص٨٢.

(٢) ابن قزل، الديوان، ص٣٩٩.

(٣) المصدر السابق، ص٤٤٢.

فالعوّادة تحتضنه، وتكرمه كما تحتضن الأم ابنها، وهي تدغدغ أوتاره ما دام صالحاً للغناء، وإذا ما تعطّل فإنّها تصلحه من أطرافه التي جعلها كالأذنين له.

ب. وقال ابن تميم يصف مغنية تضرب على العود:(١)

جـاءتْ بعـودٍ كلّمـا لَعِبـتْ بـه لَعِبـتْ بـي الأشـجانُ والتبـريحُ
غنّـتْ فجاوبَهـا ولـم يَـكُ قبلَهـا (شـجرُ الأراكِ مـع الحمـامِ ينـوحُ)(٢)

هنا يقول ابن تميم: إنّ ضرب المغنية على العود يثير أشجانه، وأشواقه، وأحزانه، فيساعده على الاستمرار في النّوح، كما يجعل شجر الأراك يتجاوب مع نوح الحمام. وهو في هذا الوصف يوضح الأثر النفسي الذي تتركه أوتار العود في نفسه.

٢ـ الشبابة

وصفها الشعراء أوصافاً جميلة، إذ كان التشبيبُ يقع في نفوس أهل الطرب والشعراء موقعاً حسناً، وممّن وصفها:

أ. قال ابن قزل، يصف مغنياً، ويحثّه على التشبيب:(٣)

يـا مُطربـاً أغنـى النـديم غنـاؤه عـن طيـبِ مـشمومٍ وعـن مـشروبِ
شـبّبْ إذا غنّيتَـا متغـزّلاً إنّ الغنـاءَ يطيـبُ بالتـشبيبِ

يطلب ابن قزل من المغنى الذي غناؤه يُغني سامعه عن الروائح الذكية، والأشربة كلها، أن يغنيه الغزل على أنغام الشبابة؛ لأنّ ذلك يطيّب الجلسة والسماع. وقال ابن قزل يصف عملية التشبيب:(٤)

ومُطـربٍ قـد رأينـا فـي أناملـه شـبابةً لـسرورِ الـنّفسِ أهلّهـا
كأنّـه عاشـقٌ وافـتْ حبيبتـه فـضمّها بيَدَيْـهِ ثُـمّ قبّلَهـا

يشبه ابن قزل حركة أصابع المغني على شبابته، ولثمه لها، (كناية عن وضعها على فمه

(١) ابن تميم، الديوان، ص٢٦.

(٢) الشطر الثاني في البيت تضمين من بيت للمتنبي هو:

يجدُ الحمامُ ولَوْ كوجدي لا نبرَى شجرُ الأراكِ مع الحمامِ ينوحُ

انظر: العكبري، عبد الله بن الحسن (ت ٦١٦هـ/١٢١٩م)، التبيان في شرح الديوان، ضبطه وصححه ووضع فهارسه مصطفى السقا وزميلاه، بيروت: دار المعرفة، لا.ت. ١/٢٤٧.

(٣) ابن قزل، الديوان، ص١٦٠.

(٤) المصدر السابق، ص٤٦٨.

ونفخه فيها)، وما ينتج عن ذلك من أصوات تثير في نفوس السامعين السرور، بالعاشق الذي أقبلت عليه محبوبته فضمّها إليه ثم قبّلها.

ووصفها ابن قزل في مقطعة ثالثة، وقد جعل وصفه على شكل لغز، فقال:(١)

وعاريةٍ من كلِّ عيبٍ حبيبةٍ ... إلى كلِّ قلبٍ باتَ بالبينِ مجروحا
لها جسدٌ ميّتٌ يعيشُ بنفخةٍ ... متى داخلتهُ الريحُ صارت به رُوحا
تعيدُ الذي يُلْقَى عليها بلذّةٍ ... تزيدُ فؤادَ الصّبِّ وجداً وتبريحا
وتنطقُ بالسِّحْرِ الحلالِ عن الهوى ... وتُوحي إلى الأسماعِ أُطيبَ ما يوحَى

هنا ابن قزل لغّزَ فيها بكلِّ صفاتها الموحية، والموصلة إلى معرفتها، ودلَّلَ على ذلكَ ببيان أثرها في نفس الإنسان، موضحاً أن سماع ألحانها حلال شرعاً.

ب. محيي الدين إبراهيم بن محمد بن قرناص، المتوفى سنة ١٢٧٢/٦٧١، قال يلغز في شبابة:(٢)

وناطقةٍ خرساءَ باد شجونُها ... تكنّفها عشرٌ وعنهنَّ تخبرُ
يلذُّ إلى الأسماع رجعُ حديثها ... إذا سدَّ منها منخرٌ جاشَ منخرُ

إنه يشخّصها تشخيصاً جميلاً، فهي خرساء، وناطقة في آن، وإن نطقت تبث شجونها، من عشرة منافذ، يطيب سماع صوتها، وهي إذا سدّ المشبب منها منخراً فتح آخر ليعبّر منه عن شجونه وأحزانه.

ج. ووصفها ابن تميم، في عدة مقطّعات منها، قوله مفضّلاً إياها على غيرها من أدوات الغناء واللهو:(٣)

قيانٌ ملاهيها يلذُّ سَماعُها ... ويطربُنا منهنَّ عودٌ ومزهرُ
وأكثرُ ما ينشي لنا السُّكرُ بينها ... أنابيبُ في أجوافِها الريحُ تصفِرُ

إنَّ القيانَ يطربنهُ بضربْهنَّ العودَ والمزهر، لكنَّ ما يطربه إلى حدّ السكر هو الشبابة.

ولكنّ ابن تميم يقف منها موقفاً مختلفاً في أخريات أيامه بعدما تاب عن السماع ، قال في ذلك:(٤)

---

(١) ابن قزل، الديوان ، ص٣٩٩.

(٢) صلاح الدين الصفدي، خليل بن أيبك (ت ٧٦٤هـ/١٣٦٢م)، الغيث المسجم في شرح لامية العجم، ط١، بيروت: دار الكتب العلمية، ١٣٩٥/١٩٧٥، ٢٨٠/١.

(٣)المصدر السابق، ٢٨١/١.

(٤)ابن تميم، الديوان، ص١٠٣.

وشـبّابةٍ قـد كنـتُ أهـوى سـماعَها وقد صـرتُ منهـا عنـدما تُبْـتُ أنفِـرُ
وهـا أنـا قـد فارقتهـا غيـرَ نـادمٍ وكـم مثلهـا فارقتُهـا وهـيَ تَـصْفِرُ

إنّه يصرّح بنفوره عنها بعد التوبة، ويؤكد أنه يفارق سماعها غير نادم على فراقهـا، وهـو في توبته فارق أشياء كثيرة.

د. ووصف ابن عبد الظاهر الشبابة، فقال:(١)

وناطقـةٍ بـالنّفخِ عـن روح ربِّهـا تُعبِّـرُ عمّـا عنـدنا وتُتَـرْجِمُ
سـكتْنا وقالـتْ للقلـوبِ فأسـمَعتْ (فـنحنُ سـكوتٌ والهـوى يـتكلّمُ) (٢)

وقد جاء وصف ابن عبد الظاهر للشبابة هنا على صورة أشبه ما تكون باللُّغز، وهو يصفها وصفاً جديداً لكنه أقرب ما يكون إلى ما يتداوله عامة الناس، فهي تنطق بالنفخ فيهـا، وتعبّـر فـي نطقها عما يريده النافخ (صاحبها) ، وتترجم كلامه موسيقى شجية بأفـضل مـا تكـون الترجمـة. فسامعها يغدو منصتا لها، وهي تحدّثه عن الحب والعشق. وقد أجاد في تضمينه الشطر الثاني مـن البيت الثاني، من شعر شاعر الغزل العباس بن الأحنف.

٣ـ الدّف والطار

الطار آلة طرب تشبه الدُّف وهي عامية رذلة مبتذلة.(٣)

وقد وصفها عدد من الشعراء، وصفاً كاملاً، كما وصفوا عملية الضرب عليهـا مـن قبـل الجواري، والغلمان، والمغنّيات، والمغنين، وممّن وصفوهما:

أ. قال ابن قلاقس، يصف مغنياً يضرب على الطار:(٤)

مـرَّ بَنَانَـاهُ علـى طـارِهِ يلمـسهُ أحـسنَ مـا لمَـسْ
وواصـلُ النَّقْـرَ علـى أصـبعٍ تغنيْـهِ لـو شـاءَ عـن الخمـس
فحـدّثوا عـن قمـرٍ مُـشرقٍ يلعـبُ بـالبرقِ علـى الـشمسِ

هنا هذا المغني لمس بأصبعيه طاره أحسن لمس في أول الغناء، ثم استمر في الغناء بأصبع

---

(١) الصفدي، **الغيث المسجم**، ٢٨٠/١؛ سلام، محمد زغلول، **الأدب في العصر المملوكي**، القاهرة، دار المعارف، لا.ت. ، ٥٢/٢.

(٢) الشطر الثاني في البيت من بيت للعباس بن الأحنف صدره:" تُحدّثُ عنّا في الوجوه عُيونُنا". انظر: ابن الأحنف، العباس (ت١٩٣هـ/٨٠٨م)، **الديوان**، شرح مجيد طراد، بيروت، دار الكتاب العربي، ١٤٢٤/٢٠٠٤، ص٢٤١.

(٣) الخفاجي، أحمد بن محمد (ت١٠٦٩هـ/١٦٥٨م)، **شفاء الغليل فيما في كلام العرب من الدخيل**، قدّم له وصحّحه محمد كشاش، ط١، بيروت: دار الكتب العلمية، ١٤١٨/١٩٩٨، ص٢١٠.

(٤) سلام ، محمد زغلول، **الأدب في العصر الأيوبي**، ص ٣٣٢.

واحد فأغناه حسن استخدامه هذا الأصبع عن استخدامه أصابعه الخمسة فكان بذلك كالقمر وهو يغني،

وأصابعه في سرعة ضربها على الطار كالبرق، والطار في لونه كالشمس.

وقال في مقطعة ثانية:(١)

تثنّى فلا مَيْسُ الغصونِ ولينها ... ورجّعَ أصواتاً فلا تذكُرِ الوُرْقَا

وأعجبُ إذْ تَحْتَثُّ يُمْناهُ طارةً ... فتسمَعُها رعداً وتبصُرها برقَا

هنا المغني يتمايل تمايل الغصون اللينة، وصوته يغني عن صوت الحمام، وضرب يده اليمنى على الطارة قوي كالرعد، وحركة يده وهي تضربها سريعة كالبرق.

ب. وقال الكرابيسي يصف مُغنياً حاذقاً في الضرب للدّف:(٢)

كأنّما العزُّ حين يضربُ بالطْ ... طار ضروباً تطيرُ بالنَّفَسِ

بدرٌ مُنيرٌ على قضيبِ نَقاً ... يخطفُ بالبَرْقِ بهجَةَ الشَّمْسِ

الشاعر هنا يشبه ضرب المغني العزّ بالطار، وأثَرُ هذا الضرب في نفوس سامعيه، بفتاة وجهها كالبدر وجسمها كالغصن في رقته، وهو عندما يظهر كأنه البرق يخطف من الناس ابتهاجهم بظهور الشمس.

ج. وقال ابن قزل يصف الدّف، والجارية تضرب عليه:(٣)

وطاربةٍ قرعَتْ طارَها ... وغنّتْ عليه بصوت عَجيْبِ

فعاينْتُ شمسَ الضُّحى أقبلت ... وبدراً تقدَّمَها عن قريبِ

هنا ابن قزل يقول: إنّ المغنّية حين تقرع الدّف، وتغني عليه بصوتها العجيب تشبه الشمس وقت الضحى، والدف بين يديها كأنها البدر الذي يتقدّم أمامها.

٤ـ المزمار

وهو آلة طرب من القصب يزمَرُ بها (يغنّى)، وهي حسنة الصوت؛ لذلك شبه حسن صوت نبي الله داود عليه السلام بحسن صوتها(٤). وقد وصفها عدد من الشعراء، منهم:

---

(١) العماد الأصفهاني، محمد بن محمد (ت٥٩٧هـ/١٢٠٠م)، **خريدة القصر وجريدة العصر: قسم شعراء مصر**، نشر أحمد أمين وزميلاه، لا.ت. ، ١٦٢/١. وانظر: سلام، محمد زغلول، **الأدب في العصر الأيوبي**، ص٣٣.

(٢) ابن الشعّار، **قلائد الجمان**، م٣ج٤/١٠٩.

(٣) ابن قزل، **الديوان**، ص١٤٠.

(٤) ابن منظور، **لسان العرب** (زمر).

أ. قال ابن قزل يصفه والجارية تغني عليه، فقال:[1]

وزامـــــرةٍ نطقـــــتْ زَمْرَهـــــا فلـــم يملـــكْ الـــصبُّ منْهـــا جنَانَـــهْ
كـــــأنّ النـــــدامى ومزْمارَهـــــا طيـــــورٌ تُـــــصَرّعها زُرْبطانَـــــهْ[2]

هنا يبين ابن قزل أثر ضرب الجارية، وغنائها على المزمار بحيث لا يعود العاشـق يملـك قلبه، فيما يصبح حال ندمائها كحال الطيور ترمى بالسبطانة فتسقط صرعى.

وقال مقطعة ثانية في جارية سوداء تغنّي بالمزمار:[3]

ســـــوداءُ كـــــالعنْبرِ معجونـــــةً بالمـــــسكِ والمـــــا وَرْدِ والعُـــــودِ
كأنّمـــــا نَغْمَـــــةُ مزْمارهـــــا لمـــــا بـــــدا مزْمـــــارُ داوودِ

هنا يصف الجارية بأنها كالعنبر المعجون بالمسك وماء الورد والعود الطيـب، وأن نغمـة مزمارها تشبه نغمة مزمار داوود عليه السلام. والملاحظ أنه ركّز فـي وصـف الجاريـة علـى رائحتها.

ب. وفي مقابل مدح المزمار، وصوته نرى ابن قلاقس يذم زامراً، فيقول:[4]

تعبـــتَ ومـــا أتيْـــتَ لنـــا بـــشيء فكيـــفَ تكـــونُ ســـاعةَ تـــستَريحُ
فـــلا تُكثـــرْ علينـــا فـــي مُحـــالٍ بزَمْـــرِكَ، صَـــحَّ أنَّ الزمـــرَ ريـــحُ

هنا يطلب ابن قلاقس من هذا الزمّار، أن يكف عن الزمر، فمحاولته الغناء علـى المزمـار محاولة مستحيلة النجاح، ولا يصح معها إلا أن يكون الزمر كالريح.

وقال ابن قلاقس يذمّ زامراً ثانياً:[5]

ينـــــافرُ إيقاعُـــــهُ صـــــوتَهُ فهـــــذا يزيـــــدُ وذا يـــــنقصُ
ويتبعُـــــهُ زامـــــرٌ مثلُـــــهُ تبيـــــعٌ لـــــه نفَـــــسٌ أوقـــــصُ[6]
فـــإنْ قـــامَ مـــا بيْنَنَـــا راقـــصاً فكُـــلٌّ إلـــى بيتـــه يـــرقُصُ

يذم ابن قلاقس هذا الزمّار في عدة صفات منها: أن إيقاعه وصوته متنافران، ومثله زمّـار

(١) ابن قزل، الديوان، ص١٤٤.
(٢) الزربطانة: اسم لما يُرمى به، مولّد وصحيحه سبطانة: الخفاجي، شفاء الغليل، ص١٧٠.
(٣) ابن قزل، الديوان، ص١٤١.
(٤) العماد الأصفهاني، خريدة القصر، ١٦٢/١.
(٥)المصدر السابق، ١٦٢/١.
(٦) أوقص: قصير. ابن منظور، لسان العرب (وقص).

آخر له نفس قصير، وإذا ما قام ليرقص بين الندماء والسمّار يتراكضون مسرعين إلى بيوتهم.

٥ـ الربابـــة

وهي آلة طرب وتريّة. وقد وجدت مقطعة واحدة في وصفها، هي للشاعر ابن قزل، إذ قال في جارية تغني وهي تلعب بقوس الربابة:(١)

وفتـــاةٍ مـــنَ الغـــواني الكعـــابِ ... أقبلـــتْ فـــي معـــصفراتِ الثيـــابِ
تتغنّـــى علـــى الرّبـــابِ نـــشيداً ... غايـــةً فـــي البـــديعِ والإطـــرابِ
خلْـــتُ قـــوسَ الرّبـــابِ فـــي راحتَيْهـــا ... شمسُ دَجْـــنٍ تـــصوغُ قـــوسَ الـــسّحابِ
واصـــلَتْني فبـــتُّ فـــي طيْـــبِ عَـــيْشٍ ... أتملّـــى بزينَـــبٍ والرّبـــابِ

يصف ابن قزل هنا الجارية الحسناء بأنها: ناهدة الثديين، تلبس ثياباً معصفرة جميلة، وهـي تغني أنشودة فكان غناؤها بديعاً، وفي غاية الإطراب للسامعين، ويشبه لعب راحتيها بقوس الربابـة بالشمس تظهر على السحاب، وهي لمّا سمعها الشاعر بات في عيشة طيبة يسترجع غنـاء زينـب والرباب اللتين طالما تغنّى بهما الشعراء القدماء.

٦ـ الجنـك

وهو آلة موسيقية وتريّة، أوتارها من الأسلاك، وتتكون من ٤٦ سلكاً، اختـصرت بـالعود، وهي على ثلاثة أنواع: صغير، يُحمل على اليد، ومتوسط، وهذان يعزف عليهمـا العـازف وهـو جالس، وكبير يعزف عليه وهو واقف. وفي العصر المملوكي عرفت الجنكيّات، وهـنّ الجـواري اللاتي يعزفن على الجنك.(٢)

وصفه ابن قزل، وهو في مجلس شراب، عندما كان يغني عليه مغنٍّ، فقال:(٣)

والجنـــكُ يخفـــقُ فـــي كفّـــي منعَّمـــةٍ ... تحكي الـــذي نحـــنُ فيْـــهِ نُزْهـــةً ومُلَـــحْ
فَصوتُهُ الرّعـــدُ والأوتـــارُ صـــوبُ حيـــاً ... والغادةُ الشمسُ تبدو، وهـــو قـــوسُ قُـــزَحْ

هنا يصف الشاعر الجنك من خلال الإكثار من تشبيهه، فالجنك وهو يتحرّك في كفّيّ المغني يشبه ما كان الشاعر فيه من نزهة وملح طريفة. ويفصل ذلك فيقول: إن صـوته قـوي كالرعـد، وصوت أوتاره كسقوط المطر من السماء، والمغنية تظهر كأنّها الشمس، فيما يظهـر هو كما يظهـر

---

(١) ابن قزل، الديوان، ١٤٠/١.

(٢) الخطيب، مصطفى، معجم المصطلحات والألقاب التاريخية، ط١، بيروت: مؤسسة الرسالة، ١٤١٦/١٩٩٦، ص١٢٨؛ محمد دهمان، معجم الألفاظ، ص٥٥.

(٣) ابن قزل، الديوان ، ص١٩٥.

قوس قزح.

٧ــ الأرغن

وهو آلة نفخ ذات أنابيب كثيرة، تستنبط منها الأصوات، والألحان بضغط الهواء، تجمع على أراغن، وهي من اليونانية.(١) وقد وصفه ابن قزل، فقال في مغنية تعزف عليه:(٢)

غنّتْ وقدْ مرَّ النسيمُ بصوتِها فسمِعْتُ أطيبَ نغمةٍ في الأرْغُنِ

عانقْتُ مِنْ أعطافِها غصنَ النّقا وجنيتُ من وجناتِها الوردَ الجني

هنا يصف ابن قزل غناء هذه المغنية وقد حمل النسيم إليه صوتها وهي تغني بالأرغن فكان أطيب صوت يسمعه، وهذا جعله يعانقها، ويقبلها.

ب. أدوات التسلية

ظهرت في القرنين السادس والسابع الهجريين/الثاني عشر والثالث عشر الميلاديين وسائل ترفيه، وتسلية عديدة في المجتمع العربي الإسلامي، وقد أدى شيوع تلك الوسائل بين الناس؛ عامتهم وخاصتهم على حدّ سواء، إلى أن يهتم الشعراء بوصف تلك الوسائل، والحديث عن طرق التسلّي بها.

ومن أهم وسائل التسلية التي ظهرت في تلك الفترة: لعبة النرد، والشطرنج، ورمي الرمح، والبندق، والصيد، وغيرها. وقد تحدّثت عن وسيلتي النرد والشطرنج ــ لضرورة اختصار البحث ــ على النحو الآتي:

١ــ النرد

وضعه أنزشير بن بابك أول ملوك الفرس الأخيرة مثالاً للدنيا وأهلها، فرتّب الرقعة اثني عشر بيتاً بعدد شهور السنة، والمهارك ثلاثين قطعة بعدد أيام الشهر، والفصول مثل الأفلاك، ورميها مثل تقلّبها ودورانها، والنقط فيها بعدد الكواكب السيارة كل وجهين منها سبعة: الشش ويقابله إليك، والبنج ويقابله الجو، والجهار ويقابله السا.

وجعل ما يأتي به اللاعب من النقوش كالقضاءِ والقدر والجهار تارة له، وتارة عليه. وهو يصرف المهارك على ما جاءت به النقوش لكنّه إذا كان عنده حسن نظر عرف كيف يتأتى، وكيف يتحيّل على الغلب، وقهر خصمه مع الوقوف عند ما حكمت به الفصوص. ولمّا تم وضع لعبة النرد، واشتهرت افتخرت بها الفرس، ما أدى بالهنود إلى وضع الشطرنج.(٣)

---

(١) انظر: ضناوي، سعدي، **المعجم المفصل في المعرب والدخيل**، ط١، بيروت: دار الكتب العلمية، ١٤٢٤/٢٠٠٤. ص٢٩.

(٢)ابن قزل، **الديوان**، ص٣٠٢.

(٣) انظر: الغزولي، **مطالع البدور**، ٩١/١-٩٢.

وقد وصفها عدد من الشعراء، وصف خبير، لأنهم كانوا يلعبونها في أوقات فراغهم، وممّن وصفها:

أ. قال ابن قزل، في لعبه النرد مع غلام:(١)

لعبتُ بالنَّردِ مع رشيقٍ ... مُهفهفٍ لينِ القوام

قال: تمامي، فقلتُ: صبراً ... ما أحسنَ البدرَ في التمامِ

إنه يلعب مع غلام بارع الجمال، حتى إنه ولانشغاله في جماله تركه يربح اللعبة، واستخدم إنهاءها في التورية بأن جعل غلامه كالبدر عندما تتم استدارته وبياضه.

وقال ينتقد لائميه على لعب النرد، ويمدح اللعبة:(٢)

ولائمٍ للفصوص وافى ... يَسُبُّ نقّاشَها بجَهْلِ

أجبتُه خَلِّ عنكَ هذا ... وامسح أذاها بحُسنِ نَقْلِ

وصانع الخصمَ إذْ تراهُ ... مُستظهراً دائماً بخَصْلِ

فالنَّردُ صيغت لذي احتياطٍ ... مهذّبِ الرأي ربُّ فَضْلِ

فكم كوى (اليكَ) قلبَ غالٍ ... ودود (الدّو) فؤادَ فحْلِ

وسوس (الساء) كُلَّ عظمٍ ... وجار جارٍ بغيْرِ عدْلِ

وبنج (البنج) من تراهُ ... وشوشَ (الشيش) كلَّ عقْلِ

هنا يصف ابن قزل منتقده للعبه النرد، وطاولتها ونقوشها بالجهل، ويطلبه بالكف عن نقده، وتغيير فكرته عن لعبة النرد فهي لعبة أصحاب العقول والفضل، ثم يتحدث عنها بذكر بعض أسماء لعبتها (اليك، والدو، والساء، والبنج، والشيش)، ويبين أثرها فيمن يلعبها.

ب. محمد بن دانيال الموصلي، الشاعر الكحال، صاحب خيال الظل، والمتوفى سنة ٧١٠/١٣١٠، وصفها في أكثر من مقطعة، منها قوله:(٣)

وللبنج فعلُ البنجِ في اللُّبِّ ما بدا ... وألهاكَ من صوم الفريضةِ والفطرِ

إذا ما بدا للدّوِّ شكلانِ أمسيا ... أليفينِ وصلا لا يُراعانِ بالجهرِ

---

(١) ابن قزل، الديوان ، ص ١٢٤.

(٢) المصدر السابق، ص ١٥٩.

(٣) صلاح الدين الصفدي، خليل بن أيبك (ت٧٦٤هـ/١٣٦٢م)، المختار من شعر ابن دانيال، تحقيق محمد الدليمي، الموصل: مكتبة بسام، ١٩٧٩، ص٢٣٣.

تروقُكَ من شفعٍ ووترٍ نقوشُها وتلهيكَ ما لاحتْ عن الشفعِ والوَترِ
إذا لثمتْ ثغراً هناكَ بدا لها طنيناً كصوتِ العودِ، والدّفِ، والزَّمْرِ

أنه يصف لعبة النرد وصف الخبير الممارس لها، ويبيّن أثرها في لاعبيها، فهي تخدّر من يلعبها، وتلهيه عن الصيام. فالصائم وعلى الرغم من حرصه على موعد الإفطار تنسيه إياه، أما الدو فشكلها رائع، ونقوشها لجمالها تلهي لاعبها عن الصلاة الزوجية والفردية، أما أصوات رميها على الطاولة فأفضل من أصوات العود، والدّف، والمزمار.

وفي مقطعة ثانية، قال ابن دانيال يصف زهرات النرد في أيدي اللاعبين:(١)

وفي القمارِ بالفصو صِ أمْرُنا كالمَثَلِ
يلوحُ في أكفِّنا كالجوهَرِ المفصّلِ
تفعلُ فيما بيننَا فعلَ القضَا في الدُولِ

هنا يجعل ابن دانيال لعبهم النرد كلاعبي القمار، ويشبّه لمعان فصوصها في أيدي اللاعبين بلمعان الجوهر، ويبيّن أثرها على لاعبيها فيقول: إنها تترك أثرها عليهم كما يترك القضاء أثره في الدول؛ لأنها تعتمد الحظ في تحديد الغالب والمغلوب.

٢. الشطرنج

وضعه صِصَّه لملك الهند بلهيث، ردّاً على تفاخر الفرس بالنرد، وقد قضى الحكماء بتفضيله على النرد، فكافأه عليه تضعيف عدد بيوته قمحا. وقيل إن سبب وضع الشطرنج هو: أن ملوك الهند ما كانوا يرون القتال، فإذا تنازعوا في كورة أو مملكة تلاعبا بالشطرنج فيأخذها الغالب من غير قتال.(٢)

وهي لعبة الأذكياء وأصحاب العقول، وتحتاج إلى هدوء، وصفاء ذهن. وانتشرت بشكل واسع ــ في فترة الدراسة ــ بين عامة الناس، وخاصتهم على حدّ سواء، وكانت تغري لاعبيها على الاستمرار في لعبها على الرغم من حاجتها لوقت طويل.(٣)

وقد لعبها عدد غير قليل من الشعراء، ومهروا في لعبها، واهتموا بوصفها، ووصف كل ما يرافقها من أحداث، وصوّروها في وصفهم بصور كثيرة، وممّن وصفها من الشعراء في فترة

(١) الصفدي، المختار من شعر ابن دانيال، ص١٣٠.
(٢) الغزولي، مطالع البدور، ٩١/١-٩٣.
(٣) انظر: أمين، محمد فوزي، المجتمع المصري في أدب العصر المملوكي الأول، القاهرة: دار المعارف، ١٩٨٢، ص٣٢٦.

الدراسة:

أ. فاضل بن راجي الله العطار المصري، وكان عطاراً، ودكانه مجمعاً للأدباء، قال في الشطرنج:(١)

وفي الشّطرنجِ تقْدمةٌ لشاه ... على ما فيه من فَرْزٍ(٢) وفيلِ
كذاكَ الدهرُ يرفعُ كلَّ نذلٍ ... ويخفضُ صاحبَ المجدِ الأثيلِ

ب. أسامة بن منقذ المتوفى سنة ١١٨٨/٥٨٤، قال:(٣)

انظر إلى لاعب الشطرنج يجمعها ... مغالياً ثمّ بعد الجمع يرميها
كالمرء يكدح في الدنيا ويجمعها ... حتى إذا مات خلاّها وما فيها

هنا يرسم أسامة صورة فيها كثير من الحكمة والعظة الكبيرة للاعب الشطرنج، فهو يعنّي نفسه في لعبها وقتل حجارة خصمه وجمعها، وبعد الانتهاء من اللعب تصبح بلا قيمة تماماً كالإنسان يكدح في امتلاك ما استطاع من حطام الدنيا، فإن مات يتركها وما فيها.

ج. وكان السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب يشتغل بالشطرنج، ويحبُّ اللعب به، فذكر ذلك الشاعر والكاتب أبو المكارم أسعد بن الخطير بن ممّاتي المتوفى سنة ١٢٠٩/٦٠٦، في قصيدة مدحه فيها، منها قوله:(٤)

يا صلاحَ الدينِ يا ملكاً ... مُذْ براه الله للأُمَمِ
أضحتِ الكفارُ في نِقَمٍ ... وغدت الإسلامُ في نِعَمِ
إنْ يكُ الشّطْرنج مشغلَةً ... للعليِّ القدرِ والهِمَمِ
فهي في ناديكَ تذكِرَةٌ ... لأمورِ الحربِ والكَرَمِ
فكم ضاعفتَ عِدَّتَها ... بالعطاءِ الجمِّ لا القلَمِ
ونصبتَ الحربَ نَصبَتها ... فانثنَتْ كفّاكَ بالقِمَمِ

يتضح هنا أن لعبة الشطرنج كان يختص بها علية القوم ومنهم صلاح الدين، لكنّها عند

---

(١) ابن سعيد الأندلسي، علي بن محمد (ت٦٨٥هـ/١٢٨٦م)، **النجوم الزاهرة في حلى حضرة القاهرة، القسم الخاص بالقاهرة من كتاب المغرب في حلى المغرب**، تحقيق حسين نصار، ط٢، القاهرة: دار الكتب المصرية، ٢٠٠٠، ص٣٢٤.

(٢) الفرز: والفرازان: الوزير وهو أحد أحجار الشطرنج من مقام الوزير من الفارسية فرزين: ضناوي، سعدي، **المعجم المفصل**، ص٣٥٢.

(٣) ابن أبي عذيبة، أحمد بن محمد(٨٥٦هـ/١٤٥٢م)، **إنسان العيون في مشاهير سادس القرون**، تقديم وتحقيق إحسان الثامزي وزميله، ط١، عمان: دار ورد للنشر والتوزيع، ٢٠٠٧.ص٩٠.

(٤) العماد الأصفهاني، **خريدة القصر**، ١٠٦/١.

صلاح الدين كانت تستخدم لإدارة الحروب والكرم، وليس لاضاعة الوقت.

د. وقال ابن قزل يصف لعبه الشطرنج مع أحد غلمانه:(١)

لعبتُ بالشّطرنجِ مَعْ أهيفٍ رشاقةُ الأغصانِ منْ قدِّهِ
أحُلُّ عقدَ البندِ من خصرِهِ وألثُمُ الشّامات في خدِّهِ

فغلام ابن قزل هنا بصفاته الجميلة شغله عن وصف الشطرنج وطريقة لعبه إلى وصف الغلام. وهذا يدلّ على أن لعب الشطرنج لم يقتصر على أصحاب العقول، وعلية القوم بل انتشر بين عامة الناس، ومنهم الغلمان بأنواعهم ومسمّياتهم المختلفة، حتى إن اتقان الغلمان للعب الشطرنج جعل الشعراء يحبّونهم، ويتغزلون بهم، وهم يلعبون، فضلاً عن مشاركتهم اللعب، وذلك كما فعل ابن قزل.

وقال ابن دانيال في لاعب شطرنج:(٢)

لعبتُ بالشطرنجِ مع ساحرِ الـ ألحاظِ ألمى أهيَفِ القدِّ
وكان دستي فيه منصوبة عليه فيما رُمْتُ من قَصْدِ
سعيتُ كالرُّخِّ إلى غايةٍ ورحتُ كالفرازنِ من وجدي
وقمتُ كالمجنون من خمرةٍ أُقبِّلُ الشامات في الخدِّ

وابن دانيال هنا لعب مع غلام بارع الجمال؛ عيونه ساحرة، وشفتاه فيهما سمرة مستحسنة، وبطنه ضامر، وقامته ممشوقة. وكانت له الغلبة عليه، فسعى إليه سعي أدوات الشطرنج إلى غاياتها في اللعب، وتمكنه منه.

المحور الثالث ــ وصف أدوات المنزل

استخدم أبناء المجتمع العربي الإسلامي في فترة الدراسة أدوات كثيرة في منازلهم من أجل تسهيل حياتهم، وجعلها أكثر رفاهية، وهناء. وقد عملوا من أجل ذلك على صناعة كثير من الأدوات التي يحتاجونها في حياتهم اليوميّة سواء أكان ذلك مما يستخدم أثاثاً في المنزل لتوفير الراحة فيه لهم، ولضيوفهم، وتحسين أجواء المنزل وروائحه، أو إضاءته في الليل، وإضاءة ساحاته، وحدائقه لتمكينهم من السهر، أو تزيين جدره بأدوات دفاعيّة مزيّنة بأنواع الجواهر ، أو الكتابات المتنوعة.

---

(١) ابن قزل، الديوان، ص٣٥٧.

(٢) الصفدي، المختار من شعر ابن دانيال، ص٢٠١-٢٠٢. وانظر: النواجي، محمد بن حسن (١٤٥٤/٨٥٩)، صحائف الحسنات في وصف الخال، دراسة وتحقيق حسن عبد الهادي، عمان: دار الينابيع، ٢٠٠٠، ص٥٥.

من خلال دراستي لشعر شعراء فترة الدراسة، تمكنتُ من تقسيم الشعر الذي قيل في وصف الأدوات المنزلية إلى العناصر الآتية:

١ــ أثاث المنزل

وصف عدد من الشعراء بعض أثاث منازلهم وصفاً جميلاً، وممّا وصفوه في منازلهم:

أ. البساط

وصفه الشاعر محمد بن عفيف الدين سليمان التلمساني، المعروف بالشاب الظريف، والمتوفى سنة ١٢٨٩/٦٨٨، فقال:(١)

بساطٌ يملأُ الأبصار نوراً ... ويهدي للقلوبِ به سُرورا

ويشرح حينَ يُبْسطُ كلَّ صدرٍ ... وخيرُ البُسطِ ما يُرْضي الصُّدورا

البساط الذي يصفه الشاب الظريف هنا: بساط جميل ، ينيرُ الأبصار، ويسرُّ القلوب، وتنشرح له الصدور، ولذلك فهو خير البسط.

ب. السجاد

وصف عدد من الشعراء السجاد والحصير المستخدم في فرش المنازل ، كما وصفوا سجادة الصلاة، وقد تمكّنتُ من العثور على عدّة مقطعات في ذلك، ومنها:

١ــ قال ابن تميم يصف سجّادة صلاة:(٢)

وسجّادة خضراء للزُّهدِ والتُّقى ... وللدِّينِ فيها والصلاحِ توسُّمُ

إذا ما رآها العابدون أمامَهُم ... لأوقاتِها صلّوا عليها وسلّموا

إنّها سجادة خضراء، تستخدم للزهد والتقوى، ويتوسّم من يراها في صاحبها التديّن والصلاح، وهي تفرشُ أمام العابدين وقت الصلاة، فيصلون عليها، ويتقرّبون إلى الله بالدعاء والصلاة والتسليم على رسوله صلى الله عليه وسلم.

٢ــ قال يحيى بن عبد العظيم المعروف بالجزّار، المتوفى سنة ١٢٨٠/٦٧٩، يصف سجادة خضراء أهداها له كمال الدين ابن العديم، وكتب معها:" المملوكة سجادة أبي الحسين الجزار". قال على لسانها تخاطب صاحبها كمال الدين ابن العديم:(٣)

---

(١) الشاب الظريف، محمد بن سليمان التلمساني (ت٦٨٨هـ/١٢٨٩م)، الديوان، قدّم له وشرحه ووضع فهارسه صلاح الدين الهواري، بيروت: دار الكتاب العربي، ٢٠٠٤/١٤٢٤، ص١٦٠.

(٢) ابن تميم، الديوان، ص٧٦.

(٣) بدوي، أحمد، الحياة الأدبية في عصر الحروب الصليبية بمصر والشام، ط٢، القاهرة: دار نهضة مصر للطبع والنشر، ١٩٧٩، ص٢٨٩.

أيهـا الـصاحبُ الأجـلُّ كمـال الـد ... يـن، لا زلـتَ ملجـأ للغريـب
كُـنْ مجيـري، لأنّنـي قـد تغـرّ ... بـت، لكـوني وقعـت عنـد الأديـب
أنـا سـجادة سـئمت مـنَ الـشطّ ... يِّ فهـبْ لـي نـشراً فنـشرُكَ طيْـبِ
طالَ شـوقي إلـى الـسجود وكـم لـي ... مـن شـروق فـي بيتـه وغـروبِ
وإذا مـا أتـاه ضـيف أرانـي ... منـه عنـد الـصلاةِ وجْـهَ مريـبِ
لـم يَرُعْـهُ اخـضرارُ لـوني وهيهـا ... تَ ومـا راعـه اسـودادُ الـذنوبِ
فأقِـلْ عثرتـي ووفِّـر بإحـسا ... نِـكَ مـن وجهـكَ الكـريم نـصيبي
واجبـر اليـومَ كـسرَ قلبـي فـلا ... زلـتَ مـدى الـدهر جـابراً للقلـوبِ

فهذه السجادة تشكو لصاحبها كمال الدين ابن العديم، وتطلب منه أن يجيرها من غربتها عند الأديب أبي الحسين الجزّار، فهي سئمت من طول زمان طيِّها في داره، وتتـشوّق إلـى الـسجود عليها، وأنه حتى إذا ما جاءه ضيف في وقت الصلاة لا يعطيه إياها، وينظر إلـى ضـيفه بريبـة، خشية أن يطلبها منه للصلاة، ثم أنه لم يُغْرِهِ لونُها الأخضر للصلاة عليها، كمـا لـم يَرُعـه كثـرة ذنوبه، وذلك كناية عن عدم تأثيرها عليه.

ثم تعود تطلب من صاحبها الأول أن يجبر عثرتها، ويحسن إليها، ويجبر كسرة قلبها، وهو أهل لذلك. وكأن السجادة تشكو من قلّة استعمالها للصلاة من قِبَلِ مَنْ أهدَيتْ إليـه وهـو الـشاعر أبـو الحسين الجزّار.

ج. خزانة الكتب، وما يتبعها

يبدو أنّ بعض الناس كانوا يصنعون خزائن لحفظ كتبهم، ويزينونها بأبيات شـعرية، وغيرهـا مـن أدوات الزينة. كما كانوا يضعون فيها أدوات الكتابة، وما تتم عليه القراءة، مثل: المقالم، والكراسي. وقد وصف الشعراء هذه الأشياء وصفاً جميلاً، وممّن قال في ذلك من الشعراء:

١ـ ظافر بن القاسم الجذامي، المعروف بظافر الحداد، المتوفى سـنة ١١٣٣/٥٢٨، قـال يـصف كرسيّ النسخ:[١]

نـزّه لحاظـكَ فـي غريـبِ بـدائعي ... وعجيـبِ تركيبـي، وحكمـةِ صـانعي
فكـأنّني كفّـا مُحِـبٍّ شـبّكتْ ... يـومَ الفـراقِ أصـابعاً بأصـابعِ

هنا يبث ظافر الحداد الحياة في كرسيّه، فيجعله ولشدّة اعجابه به يطلب من الناظر إليـه أن

(١) ظافر الحداد، ظافر بن القاسم (ت ٥٢٨هـ/١١٣٣م)، الديوان، تحقيق حسين نصار، القاهرة: دار مصر للطباعة، ١٩٦٩.

يمتّع ناظريه في حسن إبداعه وتركيبه، وحكمة صانعه ومهارته، ثم يضفي عليه صورة جميلة بأن يجعل تشابك مكوناته كتشابك أصابع المحبين عند الفراق، وفي ذلك كناية عن قوة تركيبه.

٢ــ وقال أسامة بن منقذ، يصف هديّة وصلته من أحد أصدقائه، وهي مقلمة من جلد أسود، وفيها أقلام مبريّة، وسكين، قال:(١)

وافتكَ حالكةُ السوّادِ، يخالُها ... صبغُ الشّبابِ النّاظرُ المتوسِّمُ
فيها رماحُ الخطِّ مرهفةَ الشّبا ... تُردي الطّعينَ، ولا يُضرّجُها دَمُ(٢)
من كُلِّ أهيفَ إن جرى في طرسهِ ... ناجى، فأفهمَ، وهوَ لا يتكلّمُ
بيضُ الأيادي في سوادِ لُعابهِ ... فكأنّما الأرزاقُ منه تُقسّمُ
تحوي مَسلّطَةً عليها يختشي ... من حدّها الماضي الحسامُ المخذَمُ(٣)
تأديبُها لهمُ بقطعِ رؤوسهم ... إنْ قصّروا في السّعي عما ترْسُمُ
فانْعَمْ بحُسنِ قبولِها متطوّلاً ... فالشّكرُ لا يحويه إلا مُنعمُ

هنا يصف أسامة المقلمة وصفاً دقيقاً فيقول: إنها مصنوعة من جلد أسود، يظنها الناظر إليها كالخضاب الأسود، وفيها أقلام حادة الأطراف، حتى أنها تردي من تصيبه من دون أن تلطخه بالدم، وهذه الأقلام عندما تسطّر على الورق فكأنما تناجي القارئ فتفهمه من غير أن تتكلّم، وكأنما هي في أثرها تقسّم الأرزاقَ على القرّاء، وفي المقلمة سكين حادة يخشاها السيف القاطع، وهي تؤدب الأقلام بقطع رؤوسها (بَرْيَها) وهو يقبلها، ويشكر صديقه على هذه الهدية.

٣ــ وقال ابن تميم بيتين من الشعر ليوضعان على خزانة كتب:(٤)

أُنظرْ إليَّ ترى في صورتي عجبا ... شخصاً حوى العلم في صدرٍ منَ الخشَبِ
وفيهِ من كلِّ فنٍّ غيرَ أنّ لَهُ ... وجداً يميلُ به شوقاً إلى الأدبِ

الشاعر في هذين البيتين ينطق خزانة الكتب، ويجعلها تحدّث من ينظر إليها فتقول له: إنها شيء عجيب، فهي كالشخص الذي يحوي العلم في صدره، لكنّ صدرها من الخشب، وفيها كلّ العلوم، لكنها تميل إلى علوم الأدب.

---

(١) أسامة بن منقذ، الديوان، ص١٥٥.

(٢) مرهف: مرقّق الحواشي، حاد. الشباة: حدُّ كل شيء. يضرّجها: يلطخها. ابن منظور، لسان العرب ، (رهف، شبا، ضرج).

(٣) المسلطة: السكين. المخذم: القاطع. ابن منظور، لسان العرب، (سلط، خذم).

(٤) ابن تميم، الديوان، ص٢١.

د. المــرآة

وجدت في بعض المنازل مرايا استخدمها أصحابها في تــزيين أنفــسهم، وتجميلهــا، وقــد استخدمها بعض الغلمان لتجميل أنفسهم أيضاً، وكذلك كانت تفعل الجواري، وقد وصف كثيــر مــن الشعراء، المرايا، ومنهم:

١ــ قال ابن قزل، يصف مرآة مصقولة:(١)

مــــصقولةٌ كالبـــــارقِ اللمّـــــاعِ بـــساعدٍ مـــن أجـــودِ المتـــاعِ
كأنّهـــا فـــي الـــشكلِ والـــشُّعاعِ بـــدرُ الـــدُّجى قـــدْ حـــلَّ فـــي الـــذّراعِ

إنها مرآة مصقولة تلمع كالبرق، وهي في شكلها الدائري ولمعانها كالبدر يظهر في الليل.

٢ــ وقال ابن تميم يصف غلاماً مليحاً ينظر في مرآة:(٢)

وأهيـــــفَ بـــــالمرآةِ مُغْـــــرى يواظِـــبُ رؤيـــةَ الوجـــهِ الملـــيحِ
يقـــول طلبـــتُ معـــشوقاً جمـــيلاً فلمـــا لـــم أجـــدْهُ عـــشقتُ روحـــي

هذا الغلام كان مُغرماً برؤية وجهه المليح بالمرآة، وكان يبحث عن معشوق جميــل يحبّــه، فلمّا لم يجده عشق نفسه؛ لأنّها أجمل ما كان يبحث عنه.

وقال أيضاً في غلام آخر ينظر في مرآة:(٣)

غـــدا عاشـــقاً وجْهَـــهُ فـــي المـــرآةِ غـــزالٌ تخيّـــرتُ فـــي كُنْهِـــهِ
فلـــو غيّبـــتْ عنْـــهُ مرآتُـــهُ لـــذابَ اشـــتياقاً إلـــى وجهِـــهِ

هنا هذا الغلام ينظر في المرآة ليرى وجهه الجميل، الذي يعشقه، وهو دائم النظر في المرآةِ لتعلّقه بوجهه، حتى أنه لو غابت عنه المرآة يذوب شوقاً إلى وجهه.

هــ ــ وصف بعض أدوات الخياطة

وصف عدد من الشعراء بعض أدوات الخياطة، كما أن بعض الشعراء كان يتخذ الخياطــة مهنته الأساسيّة، وقد كثر في فترة الدراسة الشعراء الذين اتخذوا مهناً بسيطة للاسترزاق منها، حيث كسد سوق الشعر في بعض الأوقات، فنسب هؤلاء إلى مهنهم، ومنهم الجزّار، والكحّال، والحــدّاد، والورّاق، والخياط وغيرهم. وممّن وصف بعض أدوات الخياطة من الشعراء:

١ــ أسعد بن الخطير بن مهذب بن ممّاتي، المتوفى سنة ٦٠٦/١٢٠٩، قــال فــي غــلام خيــاط

(١) ابن قزل، الديوان، ص١٥٤.
(٢) ابن تميم، الديوان، ص٢٤.
(٣) المصدر السابق، ص٩٠.

يصفه:[١]

وخيّـــاط نظـــرتُ إليـــه ... مفتونـــاً بنظرتـــه
أســـيلُ الخـــدِّ أحمـــرُه ... بقلبـــي مـــا بوجنتـــه
وقـــد أمـــسيتُ ذا ســـقمٍ ... كـــأنّي خـــيط إبرتـــه
وأحـــدُ منـــه ذاك الخيـــ ... ـــطَ فـــازَ بـــريٍّ ريقَتـــه

هنا يصف ابن مماتي الخياط الذي يثير إعجابه فهو: ذو نظرة فاتنة، طويل الخد، أحمر الوجنتين كما قلب الشاعر، وذلك ما جعل الشاعر مريضاً فنحل جسمه حتى صار كخيط الإبرة بيد ذلك الخياط إلا أنّ ما يميز ذلك الخيط عنه أنه ارتوى من ريف ذلك الغلام الخياط، فيما الشاعر ما زال سقيماً ظمئا إلى ريقه.

٢ـ مجاهد بن سليمان، المتوفى سنة ١٢٧٣/٦٧٢، كان يعمل خياطاً في القاهرة، ولكثرة استخدامه أداتي الخياط الرئيستين؛ الإبرة والكستبان الذي يحمي أُصبعه من خرم الإبرة، قال ملغزاً فيهما:[٢]

ثلاثـــة فـــي أمْـــرِ خـــصمينِ ... إلفـــينِ لكـــنْ غيـــر إلفـــينِ
همـــا قريبـــانِ وإنْ فرّقـــت ... بينهمـــا الإبهـــام فـــرقينِ
فواحـــد يعـــضدُهُ واحـــدٌ ... ويعـــضدُ الآخـــر بـــاثنينِ
تراهمـــا بينهمـــا وقعـــة ... إذْ تقـــعُ العـــينِ علـــى العـــينِ

هنا يلغز الشاعر بالإبرة والكستبان من خلال بيئته إذ كان خياطاً يعرف حقيقة عملهما، فهما قريبان يفرق بينهما الإبهام، ويساعد أحدهما الآخر، وعندما يبدأ العمل فإنهما يقعان أحدهما على الآخر.

٢ـ وصف أدوات الإضاءة في المساجد والمنازل والحدائق

استخدم أبناء المجتمع الإسلامي ـ في فترة الدراسة ـ مجموعة من الأدوات التي أضاءوا بها أماكن وجودهم في الليل، فأضاءوا منازلهم، ومساجدهم، وأماكن سمرهم، وحدائقهم، وكانوا يطيلون السمر والجلوس في الليل في شهر رمضان بخاصة، حيث يصلّون التراويح، ويقومون وقت السحور، فيما كان بعضهم يقوم بإيقاظ أهل حيّه أو قريته وقت السحور.

وقد وصف عدد من الشعراء أدوات الإضاءة المستخدمة في فترة الدراسة وصفاً جميلاً، وأهم الأدوات المستخدمة في الإضاءة، ووصفها الشعراء، هي:

---

(١) العماد الأصفهاني، خريدة القصر، ١٠١/١.

(٢) سلام، محمد زغلول، الأدب في العصر المملوكي، ١٨٠/٢.

أ. الشمعـــة

كانت الشموع أكثر أدوات الإضاءة انتشاراً في فترة الدراسة، وقد استخدمها الناس للتخفيف من ظلمة الليل، وفي بعض الأحيان لتحويل الليل إلى نهار، ولمساعدتهم على التنقل في الليـل مـن مكان إلى آخر، وعلى قضاء حاجاتهم بعد الغروب.

وقد أكثر الشعراء من وصف الشموع لدرجة لا يكاد يخلو شعر شاعر مـن شـعراء القـرنين السادس والسابع الهجريين/ الثاني عشر والثالث عشر الميلاديين من مقطوعة أو أكثر في وصـفها. وممّن وصفها من الشعراء:

١ــ أبو علي المهذب بن الزبير الغسّاني، المتوفى سنة ١١٦٥/٥٦١، قال في شمعة:(١)

ومـصفّرةٍ لا عـن هـوى غيـر أنّهـا تحـوزُ صـفات المـستهام المعـذّبِ
شـجوناً وسـقماً واصـطباراً وأدمعـاً وخفقـاً وتـسهيداً وفـرط تلهُّـبِ
إذا جمَّـشتها الـريحُ كانـت كمعـصمٍ يـردُّ سـلاماً بالبنـانِ المخـضّبِ

يصف ابن الزبير الشمعة فيقول: إنها صفراء من غير وقوعها في الحـبّ، وهـي تجمـع صفات المحب العاشق ومنها: الحزن، والمرض، والتصبُّر، وسيلان الدموع، وخفقان القلب، والأرق في الليل، وزيادة الحرارة، حتى إذا ما غازلتها الريح (هبت عليها)، كانت مثل المعـصم المخـضّب بالحناء عندما يرفع لردّ التحية.

٢ــ أبو الحجاج يوسف بن محمد المعروف بابن الخلال، المتوفى سنة ١١٧٠/٥٦٦، قـال يـصف شمعة:(٢)

وصـحيفةٍ بيـضاء تَطلـعُ فـي الـدُّجى صـبحاً وتـشفي النـاظرين بـدائها
شـابت ذوائبهـا أوانَ شـبابِها واسـودَّ مَفْرِقُهـا أوانَ فنائهـا
كـالعينِ فـي طبقاتهـا ودموعهـا وسـوادها وبياضـها وضـيائها

يذكر هنا ابن الخلال صفات شمعته فيقول: إنّها بيضاء اللون، تحـوّل الليـل إلـى صـبح، وتمـرض فتـشفي ناظريهـا (وهنـا كنايـة جميلـة فهـي عنـدما تـشتعل وتبـدأ بـالاحتراق (تمرض)، لتشفي من ينظر إليها (تمكنه من السير ليلاً).

وهي عنده في مقطعة ثانية كالذهب، وفلق الصبح في الليل، ولدقة وصـفه لهـا يـشبّه أوّل اتقادها (اشتعالها) بالبرق الذي يتبعه مطر، ويجعلها شبيهة بالعاشق في اللون، والـدمع، والحرقـة،

(١) سلام، محمد زغلول، الأدب في العصر الأيوبي، ص٣٢٥.

(٢) العماد الأصفهاني، خريدة القصر، ١/٢٣٦؛ ابن سعيد الأندلسي، النجوم الزاهرة، ص٢٦٢.

والسقم، والطاعة، والأرق، الدائم والشقاء، وكالحب في اللين، والأنس، والاستواء، والرائحة، والبهجة، والاجتلاء، واللقاء، قال:(١)

وسعدةٍ لدنةٍ كالتبرِ تعبقُ في ... جُنحِ الظلام إذا ما أبرزَتْ فلَقا
وتستهلُّ بماءٍ عندَ وقْدَتِها ... كما تألَّقَ برقُ الغيثِ فانْدَفقا
كالصَّبِ لوناً ودمعاً والتظاً وضنىً ... وطاعةً وسهاداً دائماً وشقا
والحبُّ ليناً وأُنساً واستواً وشذاً ... وبهجةً وطروقاً واجتلاً ولقا

٣ــ ووصف القاضي الفاضل، الشمع في عدة قصائد ومقطعات، منها قوله من قصيدة يمدح فيها أسد الدين شيركوه بن أيوب، عم صلاح الدين:(٢)

والشمعُ فوقَ البحرِ تحسبُ أنّه ... من لُجَّةٍ قد أُطْلِعَ المَرْجَانُ
والماءُ درعٌ، والشموعُ أسِنَّةٌ ... ولها، إذا خفقَ النَّسيمُ، طِعانُ

٤ــ علي بن عبد الله الوهراني الأنصاري، المتوفى سنة ١٢١٨/٦١٥، قال في شمعة:(٣)

وراهبٍ باتَ طولَ الليلِ منتحباً ... يبكي وفي رأسه طرطورُ من ذهبهْ
يشكو إلى اللهِ إحراقَ الجحيمِ له ... يا خوفَهُ واحتكامَ البردِ في ذنبهْ

هنا الأنصاري رسم صورة رائعة للشمعة فجعلها راهباً يلبسُ طرطوراً مذهّب الرأس، أمضى ليله باكياً، وهو يدعو الله سبحانه أن لا يعذّبه بنار جهنّم (فكأنه ببكائه وخوفه تشتعل به النار حقا)، والبرد(الزمهرير) في قدميه (كأن طول مكوثه في الدعاء ليلاً في البرد حوّل قدميه من شدة البرد إلى ما يشبه الزمهرير).

٥ــ أبو القاسم عبد الرحيم بن شيث، المتوفى سنة ١٢٢٧/٦٢٥، قال في شمعة:(٤)

وأنيسةٍ باتت تُساهرُ مقلَتي ... تبكي وتبدي فعلَ صبٍّ عاشقِ
سرقتْ دموعي والتهابَ جوانحي ... فغدا لها بالقطِّ قطعُ السارقِ

هنا يصف ابن شيث الشمعة وصفاً جديداً لكنه ليس بعيداً عمن سبقه، فشمعته تؤنسه بالليل، لكنها كانت تفعل فعل العاشق بكاء وحركات، وهي بذلك قد سرقت منه دموعه، وحرقت أضلعه،

---

(١) العماد الأصفهاني، ٢٣٦/١؛ ابن سعيد الأندلسي، ص٢٦١-٢٦٢.

(٢) القاضي الفاضل، الديوان، ص٣١٦.

(٣) ابن الشعار، قلائد الجمان، م٣ج٤/٢٧٠.

(٤) ابن ظافر الأزدي، علي بن ظافر (ت١٢١٦/٦١٣)، بدائع البدائه، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، صيدا وبيروت: المكتبة العصرية، ١٩٩٢/١٤١٣، ص٣١٩.

وبذلك فهي تستحقُّ عقوبة السارق، وهي القطع.

٦ـ وقد أكثر ابن تميم، من وصفها، وفي إحدى الليالي كان يسير في شارع على ضوء شمعة يحملها بيده، فلما طفيت، عرّج على منزل أحد أصدقائه فأشعلها من سراجه، فقال في ذلك:(١)

يا أيُّها المولى الشريفُ ومنْ لهُ فضلٌ يفوقُ به أهلُ الأدبْ
لمّا أزرتُكَ شمعتي لِتُنيرَها جاءتْ تحدّثُ عن سراجكَ بالعجبْ
وافتْهُ حاسرةً فقبّلَ رأسها وأعادها نحوي بتاجٍ من ذهبْ

فانظر إلى هذه الصورة الجميلة والبسيطة في آن، التي صوّر بها شمعته وسراج صديقه، فقد جعلها تكلّم صاحبها (الشاعر) وتقول له: إنها عندما ذهب بها لينيرها، وهي كاشفة رأسها، قبّله وأعادها لصاحبها وهي تلبس تاجاً من الذهب (كناية عن الشعلة التي منحها إياها).

وكما كان ابن تميم يستخدم الشمعة ليلاً، كان غلمانه يستخدمونها، قال في وصف شمعة يحملها غلام مليح:(٢)

عجباً له أنّى يزورُ بشمعةٍ وضياؤه يثني الظلامَ نهارا
وأظنُّها لمّا تلهّبَ قلبُها حسداً أسالتْ دمعَها مدرارا
وغدتْ لفرطِ الغيظِ تُعطي كلَّ منْ وافى ليقطعَ رأسَها دينارا

فابن تميم يعجبُ من هذا الغلام الذي ينير الظلامَ بجماله، كيف يحتاج إلى شمعة يتجول بها، وجعل الشمعة تحسده على جماله، فاشتعل قلبها غيظاً، ودلّ على ذلك دمعها الذي نزل متواصلاً، ولشدّة غيظها من جماله كانت تهب كلَّ من يأتي لإطفاء شعلتها ديناراً (كناية عن الشمع الذي يتساقط منها جراء الاشتعال).

٦ـ نور الدين علي بن سعيد الأندلسي، المتوفى سنة ١٢٨٦/٦٨٥، قال في مجلس زُيِّنَ بالشموع:(٣)

ومجلسِ أُنسٍ زيّنتْهُ عرائسٌ تزيدُ لنا وصلاً إذا ما قطعناها
إذا طعنت صدرَ الظلامِ برُمْحِها تجرّدَ سيفُ الصُبحِ منه فأفناها

فابن سعيد يجعل الشموع التي تضيء مجلس أنسه كالعرائس تزيّن مجالس الأنس، وهي

---

(١) ابن تميم، الديوان، ص١٥.

(٢) المصدر السابق، ص٣٢.

(٣) صلاح الدين الصفدي، خليل بن أيبك (ت٧٦٤/١٣٦٢)، الكشف والتنبيه على الوصف والتشبيه، حققه وعلّق عليه هلال ناجي وزميله، ط١، ليدز(بريطانيا): (سلسلة إصدارات الحكمة:٤)، ١٤٢٠/١٩٩٩، ص١٢٠.

تزيد من وصلها لهم كلما قطعوا رأسها (كناية عن إعادة إشعالها) . ثم يجعل ضوءها رُمحا ترمي به صدر الظلام فينيره، لكنْ ما يلبث الصبح أن يجرّد سيفا لمحاربتها وافنائها.

ت. شمعة المنجنيق

يظهر مما أورده ابن ظافر الأزدي في "البدائع والبدائة" أنها شمعة كانت توضع في المعسكرات للإضاءة على الجنود، وكانت تحفُّ بصحن كبير يقيها تقلّبات الطقس، ويحافظ عليها مشتعلة. ولعلّ تجويف الصحن كان يشبه تجويف المنجنيق فسميت بذلك.[١] وقد وصفها عدد من الشعراء بأوصاف جميلة استمدوها من بيئتهم، ومنهم:

١ـ علي بن ظافر الأزدي، المتوفى سنة ١٢١٦/٦١٣، قال:[٢]

وشمعةٍ في المنْجنيـ ـقِ تلْتظي وتَتَقِدْ
تنيرُ فيهِ مِثْلَما ينيرُ بالرّوحِ الجسدْ

هنا يشبه إنارة الشمعة للمنجنيق، وبثّها الحياة فيما حوله، بالروح التي تنير الجسد، وتبثُّ الحياة فيه، وهو تشبيه جميل.

وقال في الشمعة نفسها، إذ كان مع مجموعة تباروا فيمن يصفها:[٣]

أرى شمعةً ضمّها المنجنيقُ فجاءتكَ بالمنظرِ الأعجبِ
يجولُ عليها احمرارُ الغشاءِ كما جالَ برقٌ على كوكبِ

هنا يشبه منظر الشمعة في المنجنيق، وما يضفيه عليها الصحن (الغشاء) الذي يقيها تقلبات الطقس من منظر أحمر، بالبرق وما يضفيه على الكواكب من لون عندما يحدث.

ووصف المجلس الذي كان وأصحابه فيه في معكسر المنصور بمدينة بلبيس وشمعة المنجنيق التي كانت تضيء عليهم، فقال:[٤]

ومجلسَ أُنسٍ ضمَّ شملَ جماعةٍ تعاطوا منَ الآدابِ خيرَ رحيقِ
لدى شمعةٍ في منجنيقٍ غشاؤهُ كما أخجلَ النقيلُ خدَّ عشيقِ
ترى نارها من خلفهِ كبُهارهِ تراءتْ لنا من خلفِ ثوبٍ شقيقِ

إنه يصف مجلس أدب ضمّه وأصدقاءه ليلاً في أحد المعسكرات، حيث كانت تضيء عليهم

(١) ابن ظافر الأزدي، بدائع البدائه، ص٢٦٨.
(٢) المصدر السابق، ص٢٦٩.
(٣) المصدر السابق، ص٢٦٧.
(٤) المصدر السابق، ص٢٦٩.

شمعة المنجنيق التي بدت حمراء كخدّ المعشوق بعد التقبيل، وبدت نارها من خلف المنجنيق كضوء خد المعشوق.

٢ــ أبو القاسم عبد الرحيم بن شيث المتوفى سنة ١٢٢٧/٦٢٥، قال في الشمعة نفسها التي وصفها ابن ظافر الأزدي، إذ كان معه في مجلس الأنس:(١)

وشمعةٍ في المنجنيقِ وهيَ فيْهِ تُشْرِقُ
كأنّها مِنْ تَحْتِهِ شمسٌ علاها شَفَقُ

يشبه ابن شيث شمعة المنجنيق وهي مشتعلة في صحنه بالشمس وقد علاها الشفق عند المغيب.

٣ــ وقال مقطعة ثانية:(٢)

وأنيسةٍ باتتْ تُساهِرُ مُقْلتي تبكي وتُوري فعلَ صبٍّ عاشِقِ
سرقتْ دموعي والتهابَ جوانحي فغدا لها بالقطْعِ حدُّ السارقِ

هنا يجسم الشاعر شمعة المنجنيق، ويبثُّ فيها الحياة، فيرسم لها صورة جميلة متحرّكة: فهي تؤنسه، وتسهر مع مقلته وهي تبكي، وتتضرم نارها كما العاشق، ثم يتهمها بسرقة دموعه، وحرقة أضلاعه، وبذلك يحكم عليها بالقطع وهو حكم السارق.

ج. القدّاحة

ويظهر من المقطوعة الوحيدة التي عثرت عليها في وصفها أنّها كانت تصنع من الحديد، وتستخدم لإشعال النار وقت الحاجة، قال إسماعيل بن حامد القوصي المتوفى سنة ١٢٥٥/٦٥٣، يصف قداحة، وجاء وصفه على هيئة لغز:(٣)

قدّاحةٌ يحكي فؤادي نارَها تخفَى وتكمُنُ تحتَ بردِ الظاهرِ
فاعجَبْ لنارٍ تحتَ بردٍ تختفي كالمكرِ في قلبِ العدُوِّ الماكرِ

(١) ابن ظافر الأزدي، **بدائع البدائه**، ص٢٦٨. وقد نسب ياسين الأيوبي البيتين للشاعر عبد الرحيم بن شيث الأسنائي وقال: إنه توفي سنة ٧٠٩هـ/١١٣٠م، وهو غير صحيح. الأيوبي: ياسين، **آفاق الشعر العربي في العصر المملوكي**، ط١، طرابلس: جرّوس برس، ١٤١٥/١٩٩٥، ص٢٢٠. وانظر: الأدفوي، جعفر بن ثعلب(ت٧٤٨/ ١٣٤٧) ، **الطالع السعيد الجامع أسماء نجباء الصعيد**، تحقيق سعد حسن ومراجعة طه الحاجري، القاهرة: الدار المصرية للتأليف والترجمة، ١٩٦٦، (تراثنا)، ص ٣٠٦، ٣٠٨.

(٢) الأدفوي، **الطالع السعيد**، ص٣٠٦.

(٣) ابن الشعار، **قلائد الجمان**، م١ج٤٣٢/١.

يشبه الشاعر نار قلبه بنار القداحة التي تختفي تحت قشرتها الخارجية الباردة، وهو يتعجب من حالها، فيعود ليشبهها بالمكر في قلب العدو الماكر.

د. الفانوس

استخدم الناس في فترة الدراسة الفانوس للإضاءة الليلية سواء داخل البيت أو خارجه، ويبدو أنهم كانوا يستخدمونه في ليالي رمضان عند صلاة التراويح، ووقت السحور.

وقد وصف الفانوس عدد من الشعراء وصفاً بيّنوا فيه حقيقة المهام التي كان يستخدم لها، وممّن وصفه من الشعراء:

١ــ وصفه ابن ظافر الأزدي، هو ومجموعة من الشعراء عندما كانوا مجتمعين في أحد جوامع القاهرة، في ليلة من ليالي شهر رمضان، وبعد انقضاء الصلاة جلسوا يتحادثون في ضوء الفانوس، فقال الأزدي: (١)

انظر إلى المنارِ والـ ... ـفانوسُ فيه يُرفَعُ
كحاملٍ رُمحاً سِنا ... نُهُ خصيبٌ يلمَعُ

هنا يصف الفانوس المرفوع في منارة عالية ليضيء على الجميع، فيشبه لمعانه في المنارة بلمعان رمح مخضّب يرفعه حامله في السماء.

٢ــ أبو الحجاج، يوسف بن علي المنبوز بالنعجة، قال في وصفه(٢):

هذا لواء سَحُورٍ يستضاءُ به ... وعسكرُ الشّهبِ في الظلماءِ جرّارُ
والصائمونَ جميعاً يهتدون به ... (كأنّه علم في رأسه نارُ) (٣)

٣ــ أبو محمد القلعي، قال(٤):

وكوكب من ضرامِ الزّندِ مطلعُهُ ... تَسري النجومُ ولا يسري إذا رقبا
يراقبُ الصبحَ خوفاً أن يفاجئه ... فإن بدا طالعاً في أُفقِه غرَبَا
كأنّه عاشق وافى على شرفٍ ... يرعى الحبيبَ فإنْ لاحَ الرقيبُ خَبا

---

(١) ابن ظافر الأزدي، بدائع البدائه، ص٢٧٣.

(٢) المصدر السابق، ص٢٧٢. ولم أستطع تحديد سنة وفاة الشاعر، لكن يتضح من حديث ابن ظافر الأزدي عنه أنه من شعراء القرن السادس والسابع وهما فترة الدراسة.

(٣) الشطر الثاني في البيت من بيت للخنساء، صدره "وإنّ صخرا لتأتمّ الهداة به". انظر: الخنساء، تماضر بنت عمرو (ت٢٤/٦٤٦)، شرح ديوان الخنساء، شرح وتحقيق عبد السلام الحوفي، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٠٥/ ١٩٨٥، ص٤٠.

(٤) ابن ظافر الأزدي، بدائع البدائه، ص ٢٧٢. ولم أستطع تحديد سنة وفاة الشاعر، لكن يتضح من حديث ابن ظافر الأزدي عنه أنه من شعراء القرن السادس والسابع، وهما فترة الدراسة.

هنا يظهر فانوس القلعي في الليل كالكوكب في اليد، وهو ثابت فيما الكواكب متحرّكة، وهو يراقبُ الصبحَ، فما أن يظهرَ حتى يغيب، وكأنّه عاشق اعتلى مكاناً مشرفاً ينظرُ محبوبَـهُ، فمـا أن يلوح رقيبهُ حتى يختبيء.

٤ــ وقال ابن النبيه المصري يصف فانوس الجامع في رمضان:(٣)

حبّـذا فـي الـصيامِ مئذنـة الجـا مـعِ والليـلُ مُـسبلٌ أذيالَـهْ
خلتُهـا والفـانوسُ إذْ رفعَتْـهُ صـائداً واقفـاً لـصيدِ الغزالَـهْ

فابن النبيه يعجبه الفانوس المعلّق في مئذنة الجامع والليل أرخى ظلامـه (سـتائره) عليـه، فيشبهه بالصائد يقف ينتظر غزالاً.

٥ــ ووصفه ابن تميم في عدّة مقطّعات، منها قوله:(٤)

أبدى اعتذاراً لنـا الفـانوس حـين غـدا فـي حالـه مَـنْ هـواه لـيسَ ينكرُهـا
رأى الهوى مُـضْرِماً مـا بـينَ أضـلُعِهِ نـارَ الجـوى فغـدا بـالثوبِ يـسترُها

ابن تميم يجعل فانوسه يعتذر للحالة التي هو فيها، وهي حالة ناتجة عن عشقه الذي أشـعل النارَ بين أضلعه، فلما كادت تفضحه أخذ يسترُها كي يحفظ حبّه.

وقال في جارية تحمل فانوساً، ومن هذه المقطعة يظهر أن الجواري كنّ يستخدمنَ الفوانيس لإضاءة الطرق أمامهنّ في الليل، كما كان الغلمان يستخدمون الشمع، قال:(١)

يقـولُ لهـا الفـانوسُ لمّـا بـدَتْ لـه وفـي قلبـهِ نـارٌ مـن الوجْـدِ تـسعرُ
خذي بيدي ثمّ اكـشفي الثـوبَ تنظُـري ضَـنَى جـسدي لكنّنـي أتَـستَّرُ

هنا ابن تميم يجعل الفانوس يخاطب الجارية التي تحمله، فيطلب منها أن تكشف عنه لتـرى النار التي تتسعّر في قلبه شوقاً وحباً، لكنّه يسترها لكي لا يفضح حبّه، وفي ذلك كناية عن الـشاعر نفسه.

هـ. القنديـــل

كان القنديل مغطى بالزجاج ليمنع الرياح والأمطار من التأثير في ضوئه، وكـان يـستخدم خارج المنازل في الحدائق، والمتنزّهات، وصحون المساجد. وقد وصفه عدد من الـشعراء وصـفاً جميلاً، ومنهم:

---

(٣) ابن ظافر الأزدي، بدائع البدائه، ص٢٧٤.

(٤) ابن تميم، الديوان، ص٣٦.

(١) المصدر السابق، ص٣٦.

١ـ أبو الحسن علي بن يحيى الذّروي المعروف بوجيه الدين ابن الذّروي، المتوفى سنة ١١٨١/٥٧٧، قال في وصفه:(١)

أيـا حُسْنَ جامعَ مصرٍ وقدْ ... تروّى من الوابلِ المغْدقِ
وضوءُ القناديلِ من فوقِهِ ... كأسطُرِ تِبْرٍ على مُهْرقِ

فابن الذّروي يرسم صورة حيّة للقنديل المعلّق في صحن جامع مصر (لعلّه جامع عمرو بن العاص) يبدو أنه شاهدها بعد قضائه فرض الصلاة. والصورة هي: تشبيه الجامع وقت المطر. وضوء القنديل يتساقط على صحنه بالصحيفة التي كتبت سطورها بماء الذهب.

٢ـ وقال ابن ظافر الأزدي:(٢)

انظر إلى حسن القناديل التي ... لاحتْ كشُهْبٍ في متونِ سماءِ
والصحنُ قد أبدى شهابَ شُعاعِهِ ... إذ صارَ مصقولاً بمرِّ الماءِ
فكأنّما هي أسطرٌ عن عسجدٍ ... كتبتْ بظهرِ صحيفةٍ بيضاءِ

هنا يصف الأزدي الجامع الذي وصفه ابن الذّروي، فيجعل القناديل المعلّقة في صحنه، وأروقته كالشهب في السماء، وقد بدت أشعة القناديل على الماء في صحن الجامع كأنها سطور من ذهب كتبت على صفحة بيضاء.

٣ـ ووصف ابن قزل، الفانوس في عدّة مقطعات، منها قوله:(٣)

وكأنّما الفانوسُ في عنقِ الدُّجَى ... دنفٌ بسراهُ شَوقُهُ وسُهادُهُ
حُليتْ أضالعُهُ، ورقَّ أديمُهُ ... وجرتْ مدامعُهُ وذابَ فؤادُهُ

هنا يشبه ابن قزل ضوء الفانوس في شدّة الليل بالرجل الذي أسقمه الشوق والأرق حتى أشرف على الموت، فضلوعه محنية، وجلده رقيق، ودموعه منسكبة، وفؤاده ذائب.

و. السّراج

استخدمه الناس في فترة الدراسة لاضاءة منازلهم والمساجد في الليل، وقد وصفه والمسرجة التي يوضع فيها زيته عدد غير قليل من الشعراء، منهم:

١ـ أحمد بن محمد المعروف بشمس الدين ابن خلكان، المتوفى سنة ١٢٨٢/٦٨١، قال عندما قدم

(١) ابن ظافر الأزدي، بدائع البدائه، ص٢٦٧.
(٢) المصدر السابق، ص٢٦٧.
(٣) ابن قزل، الديوان، ص١٤٧-١٤٨.

مدينة حلب ملغزاً في السراج لصديقه كمال الدين ابن العديم:(١)

أيُّهـــــا العـــــالم الـــــذي صـــــارَ حبـــــراً مُمارســـــا
والـــــذي موضـــــحاته يجتليهـــــا عرائـــــسا
أيُّ شـــــيء تـــــرى الـــــورى جمعهـــــم منـــــه قابـــــسا
إن فـــــي الـــــسرب نـــــصفه حيـــــث مـــــا كـــــان كانـــــسا
ثـــــمَّ صـــــحَّف تمامَـــــهُ تلـــــقَ خِـــــلاًّ مؤانِـــــسا
واحـــــذفنْ منـــــه ثالثـــــاً تنظـــــرنْ فيـــــه فارســـــا
مـــــنْ يـــــصحفه عاكـــــسا يلـــــقَ فـــــي الليـــــل حارســـــا

هنا ابن خلكان بعد الإشادة بصديقه ابن العديم، وبيان مقدرته على حلِّ الألغاز يبدأ بعدّ صفات السراج لكي يهتدي منها إليه، ومنها: أن الناس تأخذ منه قبسا، وهو يختفي، وعند تصحيفه يصبح صديقاً مؤنسا، وإذا حذف منه ثالثه يجد ما يركبه الفارس (السرج)، وبتصحيفه معكوساً يجد كلمة حارس، وبذلك فإنه كأنما يريد أن يقول له الملغز فيه.

٢ــ وقال ابن تميم في سراج يوقد من سراج:(٢)

أعلمـــــتمُ يـــــا قـــــوم أنّ ســـــراجنا أمـــــس وفيـــــه فـــــضيلة لا تكـــــتمِ
يـــــأتي أخـــــوه إليـــــه حاســـــر رأســـــه فيعيـــــده فـــــي الحـــــالِ وهـــــو معمّـــــمِ

هنا ابن تميم شبه السراج وهو مطفي بالرجل الذي لا يلبس على رأسه غطاء، وهو مشتعل بالرجل يلبس عمامة.

٣ــ عمر بن محمد بن حسن المعروف بالسراج الوراق، المتوفى سنة ١٢٩٦/٦٩٥، وقد أكثر من وصفه حتى قيل له: "لولا لقبك راح نصف شعرك".

ومما قاله في وصف السراج:(٣)

إذا بحـــتُ بالـــشكوى عتبـــتْ معاشـــراً بلا راحـــة فـــي مـــدحهم أتعبـــوا ذهنـــي
يريـــدونني رطـــبَ اللـــسانِ ومَـــنْ رأى سراجاً غدا رطـــبَ اللـــسانِ بـــلا دَهْـــنِ

فهو هنا يشبه العطاء له بمثابة الزيت للسراج، فالعطاء يولد المدح، والزيت يولد النور في السراج.

---

(١) الغزولي، مطالع البدور،١٠٦ - ١٠٧.

(٢) ابن تميم، الديوان، ص١١٨.

(٣)الغزولي، مطالع البدور، ١٠٧/١.

وقال:[١]

أقـــول فـــي يـــوم شـــتاء بـــه ... مـــن ســـحبه مـــا خلـــف النـــيلا
خرجـــتُ مـــن بيتـــي ســـراجاً وقـــد ... عـــدتُ بحمـــد الله قنـــديلا

وهنا يصف الشاعر نفسه وقد خرج من منزله في يوم ماطر، وعاد وقد بلّله المطر، فيشبّه نفسه وقد خرج منير الشكل، بالسراج الذي ينير الطريق، ولما عاد وقد بلّله المطر بالقنديل، الذي عليه زجاج يقيه تحوّلات الطقس.

وقال يبين وقت استخدام السراج حيث اجتمع بصديقين له: الأول، بدر الدين بيليك، والثاني شمس الدين سنقر، قال:[٢]

لمـــا رأيـــتُ البـــدرَ والـــشمسَ معـــاً ... قـــد انجلـــت دونهمـــا الـــدّياجي
حقـــرتُ نفـــسي ومـــضيتُ هاربـــاً ... وقلـــت: مـــاذا موضـــوع الـــسّراج

فهو يوضح أنه لا مكان له عند ظهور القمر بدراً في السماء، ولا عندَ اشراق الشمس، فضوؤه لا يشابه ضوءهما بأي حال.

وقال يمدح ضياء الدين، وقد أجاد في توظيف اسمه واسم الممدوح:[٣]

أمولانـــا ضـــياء الـــدين دُمْ لـــي ... وعـــشْ فبقـــاء مولانـــا بقـــائي
فلـــولا أنـــتَ مـــا أغنيـــتُ شـــيئاً ... وهـــل يغنـــي الـــسراج بـــلا ضـــياءِ

هنا يدعو للممدوح بدوام البقاء لأن في ذلك بقاءه، وقد دلّل على ذلك بأن جعله ضوءه الذي لولاه ما كان السراج.

الخاتمـــة

توصلت في هذه الدراسة إلى عدّة نتائج أهمها:

١. أن وصف الشعراء للأدوات الصناعية جاء ــ في غالبيته العظمى ــ في مقطّعات قصيرة؛ كلماتها سهلة، وواضحة، ونظمت على أوزان خفيفة، كما أنّ كثيراً من تراكيبها أقرب ما تكون إلى التراكيب الشائعة على ألسنة العامة حتى يومنا هذا من مثل:" كل الناس محتاج إليه"، أو "يا ليت لنا مثل ما لها"، و "لو رأيت الذي رأيت"، و" دار عليها وبكا"، و"تعبت وما أتيت لنا بشيء"، وغيرها.

(١) الغزولي، مطالع البدور، ١٠٧/١.
(٢) المصدر السابق، ١٠٨/١.
(٣) المصدر السابق، ١٠٨/١.

٢. أن الفوارات والدواليب، والنواعير كانت منتشرة في المنازل، والحدائق، والبساتين، ومجالس اللهو والأدب، وعلى ضفاف الأنهار، ما جعل الشعراء يكثرون من وصفها وصفاً جميلاً معتمداً على البيئة الموجودة فيها، حيث وصفوا صوتها، وطريقة عملها. ورسموا لها صوراً بلاغية استمدّوها من بيئتهم، ــ وغالباً ــ بثوا فيها الحركة، وجسّموها.

٣. ذكر الشعراء بعض الأدوات الصناعية التي كانوا يستخدمونها بمُسمّياتها غير العربية من مثل: الجنك، وزربطانة، وأرغن، وشطرنج وغيرها. ولم يتحرّجوا من كونها أعجمية، كما أنهم لم يعملوا على تعريبها، وبالتالي لم تنشأ أمامهم عقبة التعريب، وقد ظهر الأمر نفسه في مصطلحات كثيرة في تلك الفترة وما بعدها، لكنّهم عملوا على إشاعة معانيها بين عامة الناس، فأصبحت جزءاً من اللغة الشائعة.